المختار من كتاب

ثمرات الأوراق

لابن حجة الحموي - المتوفى ٨٣٧ هجرية

اختيار

يعقوب عبد النبي

مراجعة

حامد عبد القادر

الكتاب: ثمرات الأوراق

اختيار: يعقوب عبد النبي

مراجعة: حامد عبد القادر

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية



هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

عبد النبي ، يعقوب

ثمرا الأوراق / اختيار: يعقوب عبد النبي ، مراجعة: حامد عبد القادر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ١٧ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٧٢٦٨ / ٢٠٢٠

ثمرات الأوراق





عصر المؤلف

(٧٦٨-٨٣٧) هـ (١٣٧٥-١٤٣٣)م

عاش ابن حجة الحموي في القرنين الثامن والتاسع الهجري متنقلاً بين حماة ودمشق والقاهرة، وقد عاصر من سلاطين المماليك: المؤيد والظاهر والأشرف.

وأيام المماليك في مصر والشام من الأيام المضطربة، التي امتحنت فيها الأمة العربية في أمنها ووحدتها؛ فقد ارتقى هؤلاء المماليك من رق العبودية، إلى التسلط على رقاب العباد، فكثرت بينهم الخلافات والمنازعات؛ وبغى بعضهم على بعض، وفسدت سيرتهم في الرعية، ففرقوا وحدة الأمة العربية، وتقاسموها دويلات وإمارات فأضعفوا من شأنها، ولم يبالوا بمرافق العمران فيها، ولا باستقرار الأمن بين ربوعها. وقد أطمع فيهم ما شجر بينهم من شقاق دائم ونزاع متواصل- الفرنجة من ناحية، والعثمانيون من ناحية أخرى.

وأخيراً استطاع السلطان سليم الأول في سنة (٩٢٣هـ- ١٥١٧م) أن يزيل ما بقي لهم من سلطان على مصر والشام.

وإذا كان حكم المماليك الذي استمر من (٦٤٨- إلى- ٩٢٣) هـ (١٢٥٠- ١٥١٧) م من الكوارث التي أصابت الأمة العربية، فعاقها عن متابعة سيرها في قيادة الحضارة والمدنية والسلام في العالم كله؛ فإن

حكم العثمانيين كان أشد بلاء وأعظم نكراً؛ لأنه رد الأمة العربية إلى الوراء قروناً.

وبينما كان الغرب يستيقظ وينهض ليستقبل تباشير فجر الحضارة الجديدة– كان الحكم العثماني يفرض على الأمة العربية جهالة القرون الوسطى وانحطاطها، ولقد أتيح لهذا الحكم الفاسد الغاشم أن يفرض سلطانه أربعة قرون كاملة، بسبب استناده إلى الخلافة الإسلامية؛ التي كانت العامة ترى في طاعتها أصلاً من أصول الدين؛ ولولا ذلك لما عاش هذا الحكم الجائر كل هذا الزمن الطويل.

وكما أسلم ضعف المماليك حكم الأمة العربية إلى الأتراك فقد، أسلم فساد الحكم التركي الأمر إلى الاستعمار الغربي!!

على الرغم مما ساد هذا العهد من الفساد السياسي والتخلف الاجتماعي فقد كان عصر المماليك الذي عاش فيه ابن حجة الحموي من أحفل عصور التاريخ العربي بإنجاب أكبر عدد من العلماء والمؤلفين، الذين تركوا لنا موسوعات، ومؤلفات في شتى العلوم.

ومما يدل على تفوق هذا العصر في عدد علمائه– عدد التراجم التي ذكرها الإمام السخاوي في كتابه (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع) فقد ترجم في كتابه هذا خمسة عشر ألف ترجمة[1]، للعلماء والأدباء والأعيان؛ إلا أن السمة الغالبة على علماء هذا العصر ومؤلفيه– هي النقل والرواية والجمع من هنا وهناك؛ حتى يتضخم المؤلف وتكثر أجزاؤه.

---

[1] عن كتاب سلاطين المماليك للأستاذ محمود رزق سليم.

والقليل النادر من علماء هذا العصر من كان يعني بالتحقيق العلمي، أو الدراسة التجديدية للعلم، التي تقوم على المقاييس الفكرية، والموازين العقلية؛ وأصبحت شهرة العالم لا تقوم إلا على سعة إطلاعه، وكثرة مؤلفاته، وإن لم يكن فيها من جديد.

ومع هذا فلا نستطيع أن ننكر أن علماء هذه الفترة من التاريخ قد أسدوا إلى الأمة العربية أجل الخدمات لأنهم جندوا أنفسهم ليكونوا الحفظة، لتراث هذه الأمة من لغة ودين بمؤلفاتهم التي فاقت في عددها وتنوعها جميع ما ألف في عصور الأمة العربية حتى نهضة القرن التاسع عشر.

ولا يستطيع أي باحث في علوم اللغة العربية أن ينكر فضل علماء هذه الفترة الذين حشدوا في مؤلفاتهم أغزر فيض من آراء العلماء السابقين والمعاصرين لهم، تلك الآراء التي نقلوها عن مؤلفات لم يصل إلينا منها إلا القليل.

وأولاً هؤلاء العلماء لضاع شطر كبير من التراث العربي الذي دون في هذا العصر وفي العصور التي سبقته.

التعريف بالمؤلف

هو أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي؛ ويعرف بابن حجة، بالكسر باسم الشهر.

ولد سنة ٧٦٧هـ- ١٣٧٥م بحماة؛ وبها نشأ، فحفظ القرآن الكريم، وأمتهن صناعة الحرير، وعقد الأزرار؛ ثم اشتغل بالعلم والأدب،

وتردد إلى أكابر عصره من الأدباء والشعراء والعلماء، يأخذ عنهم، ويجد في اللحاق بهم حتى تم له ما أراد، فتقدم في عمل الأزجال والمواليا، وأقبل على نظم الشعر فأجاده وتفوق فيه.

ثم ارتحل إلى الشام قبل سنة ٧٩٠ هـ فمدح أعيانها. فنبه شأنه وذاع صيته، واتصل بخدمة نائب الشام يومئذ– الأمير شيخ المحمودي (السلطان المؤيد فيما بعد).

ثم قدم صحبته إلى القاهرة، فلما تسلطن قربه إليه وأدناه منه، وجعله من ندمائه وخواصه، وصار شاعره، وله فيه عدة مدائح.

وتولى ديوان الإنشاء فعظم في الدولة شأنه، وصارت له ثروة وكان له حشم.

ولما توفى الملك المؤيد تسلط عليه جماعة من شعراء عصره وحساده، فأكثروا من هجائه لأنه كان ضنيناً بنفسه وبشعره؛ ومازالوا به حتى أخرجوه من مصر، فرجع إلى وطنه حماة في سنة ٨٣٠ فأقام بها، ملازماً الاشتغال بالعلم والأدب والتأليف فيهما إلى أن توفى رحمه الله سنة ٨٣٧هـ–١٤٣٣م

ولقد ترجم له كل الذين عاصروه، والذين جاءوا من بعده من أصحاب التراجم، فأثنوا الثناء الجم على أدبه وخلقه، واعترفوا بفضله، وأنه كان إماماً عارفاً بفنون الأدب، متقدماً فيها، طويل النفس في النظم والنثر، وأنه كان حسن الأخلاق والمروءة مع بعض زهو وإعجاب بنفسه.

مؤلفاته

لابن حجة مؤلفات أهمها:

ثمرات الأوراق، وخزاته الأدب، وكشف اللثام عن وجه الثورية والاستخدام– وهذه المؤلفات الثلاثة مطبوعة.

وقد ذكر أصحاب التراجم من مؤلفاته الكتب الآتية:

حديقة زهير– وزاوية شيخ الشيوخ– وتحرير القيراط– وقهوة الإنشاء– في مجلدين– وهو مما أنشاه بالديار المصرية عن الملوك: المؤيد والظاهر والأشراف– والثمرات الشهية من الفوائد الحموية (نظم) وجنى الجنتين، وتأهيل الغريب– في أربع مجلدات– وديوان شعر مديح، ومن شعره وقد اجتمعت الباردة والحمى في مرضه.

بردية بـردت عظمـى وطابقهـا	سـخونة ألفتهمـا قـدرة البـاري
فـامنن بتفرقـة الضـدين مـن	يا ذا المؤلف بين الثلج والنار

وكان ابن حجة من أشد الناس في عصره وغير عصره ولعاً بالبديع؛ فمن ذلك أنه أنشأ قصيدة سماها: البديعية، تحتوي على ١٤٢ بيتاً من الشعر، وفي كل بيت شاهد يشير إلى نوع من أنواع البديع.

وشرح هذه القصيدة في مؤلفه الضخم (خزانة الأدب) في ٥٧١ صفحة، ومن شدة ولعه بالبديع أيضاً أنه ألف كتاباً خاصاً بنوعين من البديع سماه: كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام.

التعريف بالكتاب

كتاب ثمرات الأوراق من أحسن ما ألف في موضوع الطرائف الأدبية؛ وقد شهد الأدباء المعاصرون لابن حجة، بأنه كان أعزفهم بفنون الأدب، وأطولهم باعاً فيه- وقد استجاد- أثناء قراءاته الواسعة المستفيضة- كثيراً من الطرائف فأحب أن يدونها، فجمعها في هذا الكتاب؛ وسماه بحق (ثمرات الأوراق) وهي تسمية تناسب موضوع الكتاب، وتشير إلى أن ما حواه هو أجود ما اختاره المؤلف من بطون الكتب والأوراق.

وابن حجة لا يتقيد في كتابه هذا بأبواب ولا فصول؛ وإنما يقدم طرائفه صنوفاً شتى؛ من الأدب والأخبار والتواريخ، والقصص والنوادر والملح والفكاهات؛ وأخبار الأذكياء والعلماء، والبخلاء والحمقى؛ وأصحاب المواهب والمروءات.

والكتاب له ذيل يسير على نهجه، وضعه المؤلف، وألحقه بالكتاب؛ وله ذيل ثان لمؤلف آخر هو الشيخ إبراهيم الأحدب المتوفى سنة ١٣٠٨هـ- ١٨٩١م والذيلان لا يختلفان عن طريقة الكتاب ولا عن موضوعه في عرض الطرائف الأدبية؛ ولهذا فقد كان اختياري مما حواه الكتاب والذيلان معاً.

وفي الكتاب كثير من الطرائف، التي كانت تلقى قبولاً في عصر المؤلف؛ ولكنها الآن تجافي الذوق وتخدش الحياء.

ولذلك فقد صرفت النظر عن اختيار هذا النوع؛ وعن غيره مما

يتبسم بالإغريق في الخرافة والخيال.

تيسير الكتاب

إن الطريقة التي اتبعتها في تيسير كتاب (ثمرات الأوراق) تعتمد على أصلين:

الأول: إزالة العقبات التي أعلم من تجاربي في التعليم– أنها تصد أبناء هذا الجيل عن الكتب الأدبية، تلك الكنوز المنسية التي تربط حاضرنا بماضينا؛ وتوثق صلتنا بخصائص قوميتنا العربية، ذات المفاخر الخلقية الباقية على الزمن.

والأمر الثاني– وضع حدود واضحة لحسن الاختيار.

فأما عن الأمر الأول فقد التزمت فيه ما يأتي:

(١) ضبط كل كلمة تتشابه صورتها الكتابية مع غيرها، لكي تتعين صياغتها اللفظية وقالبها المعنوي، ووظيفتها الإعرابية من فاعلية أو مفعولية أو إضافة.

(٢) شرح المفردات اللغوية والأساليب البلاغية التي تخفى على بعض القارئين

(٣) التعريف بالأعلام التي ترد في سياق النصوص الأدبية.

حسن الاختيار

يختلف الناس دائماً في حدود (حسن الاختيار) لاختلاف أذواقهم في تقدير العمل الأدبي؛ إذ لا يوجد إلى اليوم (ميزان) ذقيق للنقد الأدبي

يخضع الكل لحكمه، ولإيجاد لون فيه.

ولا يزال الميزان الأدبي في كل عصر يتأثر بالناقد، ومحصوله العلمي والأدبي وعقيدته الدينية، ومبدئه السياسي، وسلوكه الاجتماعي.

وأما الأساس الذي وضعته لحسن الاختيار من كتاب ثمرات الأوراق- فقد كان هدفه أولاً وقبل كل شيء فائدة القارئ، وما ينبغي أن نزوده به من معارف جديدة مفيدة في اللغة والأدب، وأخبار الناس، ووقائع الزمان، وكل ما فيه إمتاعه وتسليته بالقصص والنوادر والفكاهات، ذات الأهداف العقلية والخلقية.

ومن مقاييس حسن الاختيار- أن يكون في النص المختار ما يوحى إلى نفس القارئ بأكرم العواطف وأنبل المشاعر، وحميد الصفات، وكريم السجايا؛ والقدرة على تحمل الحياة؛ ومصابرة الأيام، ومعاشرة الناس.

ولهذا فقد استبعدت من كتاب ثمرات الأوراق أثناء الاختيار كل الأخبار والقصص والنوادر والفكاهات، التي توحي بالتحلل الخلقي، أو الضعف النفسي مهما كانت بليغة الأسلوب، شائقة العرض مثيرة للنفس؛ ذلك لأن بلاغة النص ليست في ألفاظه الفصيحة وتراكيبه البليغة وحسب؛ وإنما بلاغته الحقيقية تكمن فيما يوحيه إلى نفس القارئ من وراء الألفاظ والأساليب.

ومن هنا ينبغي أن ننظر إلى النص الأدبي من ناحيتين. ناحية الموضوع، وناحية الإيحاء؛ لأن منزلة الإيحاء يتنزل بها الوحي مباشرة على قلب القارئ عقب قراءة النص، لدفعه إلى العمل أو الترك أو الانفعال.

ونقاد الأدب يخطئون أشد الخطأ عندما يتحدثون عن اللفظ مستقلاً عن المعنى، أو المعنى مستقلاً عن اللفظ؛ ويزنون كلاً منهما بميزان خاص، ويفرقون كذلك بين المادة والصورة.

والحقيقة التي لا شك فيها- أن هذه الأسماء الأربعة: اللفظ والمعنى والمادة والصورة؛ إنما هي أسماء مختلفة لمسمى واحد هو: النص بلفظه ومعناه معاً.

فلا وجود للفظ له استقلال عن معناه؛ كما أن المعنى يستحيل وجوده في غير قالب من اللفظ.

والصورة والمادة، كمثل الروح والجسد، ليس لأي منها استقلال عن صاحبه وملازمه.

وعلى ضوء هذا الأصل- راعيت عند كل اختيار أن يكون النص الذي اختاره موحياً لنفس القارئ بفكرة جميلة، أو شعور حسن، أو حل لمشكلة؛ أو دافعاً له إلى الاستزادة من الثقافة والتاريخ واللغة والأدب.

يعقوب عبد النبي

المقدمة

قال الشيخ الإمام حجة العرب، وترجمان الأدب، تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي، منشئ دواوين الإنشاء الشريف؛ بالممالك الإسلامية؛ تغمده الله برحمته.

أما بعد حمد لله الذي فكهنا[١] بثمار أوراق العلماء، والصلاة والسلام على نبيه شجرة العلم، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. وعلى آله وصحبه الذين هم فروع هذه الشجرة، وأغصانها التي دنت لهذه الأمة قطوفها المثمرة. فإني وريت[٢] بتسمية هذا الكتاب بـ (ثمار الأوراق) عالماً أن قطوفه لم تدن لغير ذوي الأذواق.

إن الذي هو رزقي سوف يأتيني

يحكى أن[٣] عروة بن أذينة الشاعر، وفد على هشام بن عبد الملك، في جماعة من الشعراء؛ فلما دخلوا عليه عرف عروة، فقال له: ألست القائل:

لقد علمت وما الإسراف من	أن الذي هو رزقي سوف
أسعى إليه فيعييني[٤] تطلبه	ولو قعدت أتاني لا يعنيني[٥]

---

[١] فكهنا: فكههم بملح الكلام تفكيهاً- إذا أطرفهم بها.

[٢] وريت: من التورية وهي، في البلاغة، أن يذكر له لفظ معنيان قريب ظاهر غير مراد، والثاني بعيد، هو المراد.

[٣] عروة بن أذينه من أهل المدينة ومن الفقهاء والمحدثين.

[٤] يعييني: يتعبني ويشق علي.

[٥] يعنيني: يصيبني بالعناء والتعب.

وأراك قد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، زادك الله بسطة في العلم والجسم، ولا رد وافدك خائباً، والله لقد بالغت في الوعظ، وأذكرتني ما أنسانيه الدهر. وخرج من فوره إلى راحلته، فركبها وتوجه راجعاً إلى الحجاز. فلما كان في الليل ذكره هشام وهو في فراشه، فقال: رجل من قريش قال حكمة، ووفد إلى فجبهته[1]، ورددته عن حاجته؛ وهو مع ذلك شاعر لا آمن ما يقول! فلما أصبح الصبح سأل عنه فأخبر بانصرافه، وقال: لا جرم![2] ليعلم أن الرزق سيأتيه ثم دعا مولى له، وأعطاه ألفى دينار، وقال: الحق بهذه ابن أذينة، وأعطه إياها، قال: فلم أدركه إلا وقد دخل بيته، فقرعت الباب عليه؛ فخرج فأعطيته المال. فقال: أبلغ أمير المؤمنين قولي: سعيت فأكديت[3]، ورجعت إلى بيتي فأتاني رزقي!

المعتزلة

المعتزلة: طائفة من المسلمين، يرون أن أفعال الخير من الله، وأفعال الشر من الإنسان، وأن القرآن مخلوق محدث ليس بقديم، وأن الله تعالى غير مرئي يوم القيامة.

وأن المؤمن إذا ارتكب الذنب؛ مثل الزنى وشرب الخمر كان في منزلة بين منزلتين، يعنون بذلك: أنه ليس بمؤمن ولا كافر.

---

[1] جبهته: رددته خائباً–كأني ضربته على جبهته– أسكته برد سيء.

[2] لا جرم، حقاً، لا محالة.

[3] أكديت: لم أظفر بحاجتي.

وأن إعجاز القرآن في الصرفة[1] عنه؛ لا أنه في نفسه معجز. ولو لم يصرف الله العرب عن معارضته، لأتوا بما يعارضه.

وأن من دخل النار لم يخرج منها.

وإنما سموا معتزلة لأن واصل بن عطاء[2]، كان يجلس إلى الحسن[3] البصري؛ فلما ظهر الخلاف، وقالت الخوارج بكفر مرتكب الكبائر، وقال الجماعة: بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر– خرج واصل عن الفريقين وقال: إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر؛ بل هو في منزلة بين منزلتين؛ فطرده الحسن البصري من مجلسه، فاعتزل عنه، فقيل لأتباعه: معتزلة.

ولم يزل مذهب الاعتزال ينمو إلى أيام الرشيد[4]؛ فظهر بشر المريسي[5] وأحضر الشافعي[6] مكبلاً[7] بالحديد، فسأله بشر:

ما تقول يا قرشي في القرآن؟ فقال: إياي تعني[8]؟ قال: نعم. قال: مخلوق. فخلى عنه. وأحس الشافعي رضي الله عنه بالشر، وأن الفتنة تشتد في إظهار القول بخلق القرآن فهرب من بغداد إلى مصر. ولم يقل

---

[1] الصرفة، من الانصراف عن الشيء والحيلولة دونه.

[2] واصل بن عطاء هو رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين ولد بالمدينة ونشأ بالبصرة توفى سنة ١٨١هـ.

[3] من سادات التابعين.

[4] أيام الرشيد: أواخر القرن الثاني الهجري.

[5] المريسي: كان فقيهاً متكلماً توفي سنة ٢١٨هـ.

[6] الشافعي: أحد الأئمة الأربعة ولد بغزة وتوفي سنة ٢٠٤هـ.

[7] مكبلاً: مقيداً.

[8] تعني: تقصد.

الرشيد بخلق القرآن؛ فكان الأمر بين أخذ وترك، إلى أن ولى المأمون[١] فقال بخلق القرآن، وبقى يقدم رجلاً ويؤخر أخرى[٢] في الدعوة إلى ذلك، إلى أن قوى عزمه في السنة التي مات فيها.

وطلب الإمام أحمد بن حنبل[٣]، فأخبر في الطريق أنه توفى؛ فبقي الإمام محبوساً بالرقة[٤] حتى بويع المعتصم[٥]، فأحضر إلى بغداد، وعقد له مجلس المناظرة، وفيه عبد الرحمن بن اسحق، والقاضي أحمد ابن أبي دواد؛ وغيرهما.

فناظروه ثلاثة أيام؛ فلم يقطع في بحث وسفه أقوال الجميع، فأمرته فضرب بالسياط، إلى أن أغمي عليه ورمى على بارية[٦] وهو مغشي عليه، ثم حمل وصار إلى منزله ولم يقل بخلق القرآن، ومكث في السجن ثمانية وعشرين شهراً ولم يزل يحضر الجمعة ويفتي ويحدث حتى مات المعتصم. وولى الواثق[٧] فأظهر ما أظهر من المحنة[٨]. وقال للإمام أحمد: لا تجمعن إليك أحداً، ولا تساكني في بلد أنا فيه. فاختفى الإمام أحمد لا يخرج إلى صلاة، ولا إلى غيرها حتى مات الواثق. وولى

---

[١] المأمون بن هارون الرشيد توفي سنة ٢١٨هـ.

[٢] يقدم رجلاً ويؤخر أخرى: كناية عن الخوف والحيرة والتردد.

[٣] أحمد بن حنبل: أحد الأئمة الأربعة توفي سنة ٢٤١هـ.

[٤] الرقة: مدينة مشهورة على الفرات.

[٥] المعتصم: هو محمد بن هارون الرشيد توفي سنة ٢٢٧هـ.

[٦] البارية: الحصير.

[٧] الواثق: هارون بن محمد بن هارون الرشيد. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٧هـ

[٨] المحنة: المراد بها امتحان الناس بالعذاب حتى يقولوا: إن القرآن مخلوق.

المتوكل[1]؛ فأحضروه وأكرمه، وأطلق له مالاً فلم يقبله وفرقه. وأجرى على أهله وولده في كل شهر أربعة آلاف درهم. ولم تزل جارية إلى أن مات المتوكل.

وفي أيامه ظهرت السنة[2]، وكتب إلى الآفاق برفع ما توقع من المحنة، وإظهار السنة. وتكلم في مجلسه بالسنة.

لم يزالوا– أعني المعتزلة– في قوة إلى أيام المتوكل.

ولم يكن في هذه الأمة الإسلامية أهل بدعة أكثر منهم.

مشاهير المعتزلة

ومن مشاهيرهم على ما ذكروا من الفضلاء الأعيان: الجاحظ[3]، وواصل بن عطاء، والقاضي عبد الجبار[4]، والرماني[5] النحوي، وأبو الفارسي[6]، وأقضى القضاة الماوردي الشافعي؛ وهذا غريب.

ومن المعتزلة أيضاً: الصاحب بن عباد، وصاحب الكشاف، والفراء النحوي، والسيرفي، وابن جنى، والله أعلم.

---

[1] المتوكل: هو جعفر بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢ وتوفي سنة ٢٤٧.

[2] السنة: ضد البدعة، والطريقة المحمودة المستقيمة، والمراد بها: القول بأن القرآن كلام الله وكلام الله قديم غير مخلوق.

[3] من مشاهير العلماء والأدباء توفي سنة ٢٥٥هـ.

[4] القاضي عبد الجبار مات بالري سنة ٤١٥هـ.

[5] الرماني من علماء النحو ولد ببغداد ومات بها سنة ٣٨٤هـ.

[6] أبو علي الفارسي: من أشهر أئمة النحو وعلمائه مات ببغداد سنة ٣٧٧هـ.

حرفة الأدب

(١)

كان عبد الله بن المعتز[١] من خلفاء بني العباس، ومع كماله وغزارة فضله، لم يزل منغصاً في حياته، بويع له بالخلافة وظن أن الحظ قد تنبه له؛ فلم يتم له الأمر إلا يوماً واحداً، ثم قبض عليه وقتل. رحمه الله تعالى!

كان محله من الفضل لا يخفى، وشمعة فضله كالصبح لا تقط[٢] ولا تطفا. وقد قيل فيه:

لله درك مــن ملــك بمضــيعة	**ناهيـك[٣] فـي العلـم والعليـاء**
مــا فيــه لــو ولا فتنقصــه	**وإنمــا أدركتــه حرفــة الأدب**

(٢)

كان الملك الأفضل نور الدين[٤]، علي بن صلاح الدين الأيوبي (يوسف) من كبار أهل الأدب، وكان حسن السيرة متديناً، قل أن عاقب على ذنب. وله المناقب الجميلة، وكان أكبر إخوته؛ ومع كمال صفاته وآدابه التي سارت بها الركبان، ما صفا له الدهر، ولا هنأه بالملك بعد

---

[١] ابن المعتز من خلفاء الدولة العباسية توفي سنة ٢٩٦هـ.

[٢] لا تقط: قط القلم إذا قطع رأسه عند بريه، والمراد أن نور الشمعة دائم لا ينقص، ولا تحتاج لقطع ذبالتها حتى يزداد نورها.

[٣] ناهيك: كلمة تعجب واستعظام، وناهيك بفلان: كافيك به.

[٤] توفي سنة ٦٢٢هـ.

أبيه السلطان صلاح الدين[1].

لبث مدة يسيرة بدمشق المحروسة، ثم حضر إليه عمه أبو بكر العادل وأخوه الملك عزيز عثمان. فأخرجاه من ملكه بدمشق إلى صرخد[2] ثم جهزاه إلى سميساط[3]. وفي ذلك كتب إلى الإمام الناصر ببغداد:

مولاي: إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد منعا بالسيف حق

فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف ... من الأواخر ما لاقى من الأول

فأجابه الناصر بقوله:

وافي[4] كتابك يا بن يوسف ... بالصدق يخبر أن أصلك

غصبوا عليا حقه إذ لم يكن ... بعد النبي له بيثرب ثائر[5]

فاصبر فإن غداً عليه حسابهم ... وأبشر فناصرك الإمام

ولم ينصره الإمام الناصر؛ بل توفي فجأة بسميساط.

(٣)

كان الملك الناصر داود بن الملك المعظم، صاحب الكرك– مع كمال فضله وعلو منزلته في الأدب، مشتتاً في البلاد، توجه إلى بغداد

---

[1] هو صلاح الدين الأيوبي توفي سنة ٦٨٦هـ.

[2] صرخد: بلد بالشام، تنسب إليه الخمر.

[3] سميساط: بلد بشاطئ الفرات.

[4] وافي: أتى وجاء.

[5] يثرب: مدينة الرسول، والثائر: المراد به الناصر والمعين.

مستجيراً بالخليفة الناصر، ولما طلب الحضور بين يديه، فما قدر له ذلك، ولا وافق الخليفة عليه، حتى امتدحه بقصيدته البائية التي مطلعها:

وران[1] ألمت بالكثيب ذوائبه … وجنح الدجى وحف تجول
تقهقه في تلك الربوع رعوده … وتبكي على تلك الطلول
أيحسن في شرع المعالي … وأنت الذي تعزى إليه
بأني أخوض الدو[4] والدو … سباريته[5] مغبرة وسباسبه[6]
ويأتيك غيري من بلاد بعيدة … له الأمن فيها صاحب لا
فيلقى دنوا[7] منك لم ألق مثله … ويحظى ولا أحظى بما أنا
وينظر[8] في لألاء قدسك نظرة … فيرجع والنور الإمامي صاحبه
ولو كان يعلوني بنفس ورتبة … وصدق ولاء لست فيه
لكنت أسلى[10] النفس عما … وكنت أذود[11] العين عما
ولكنه مثلي ولو قلت إنني … أزيد عليه لم يعب ذاك عائبه

---

(1) ران: من الرنو: أدامة النظر للشيء، والكثيب التل من الرمل، وجنح الدجى: الطائفة من الظلمة، والوحف: الشعر الكثيف الأسود.

(2) شبه صوت الرعود بالقهقهة، وشبه تساقط المطر من السحب بالبكاء.

(3) تعزى: تنسب.

(4) الدو: الفلاة.

(5) سباريته: جمع سبروت: الأرض القفر التي لا تنبت.

(6) السباسب: جمع سبسب المفازة والصحراء.

(7) دنوا: قرباً.

(8) لألأ: لمعان وإشراق.

(9) أصاقبه: أقاربه.

(10) أسلى: أعزى.

(11) أذود: أمنع.

(٤)

مر عمارة[١] اليمني الشاعر بمصلوب فقال:

ومد على صليب الصلب منه　　　يميناً لا تطول إلى الشمال

ونكس[٢] رأسه لعتاب قلب　　　دعاه إلى الغواية والضلال

فلم تمض ثلاثة أيام حتى صلب بين القصرين[٣] مع الجماعة الغرماء. وكان عمارة أديباً ماهراً، شافعي المذهب من أهل السنة، قدم في دولة الفاطميين إلى الديار المصرية، وصاحبها يومئذ الفائز بن الظافر، ووزيره الصالح بن رزيك. فكان عنده في أكرم محل وأعز جانب، واتحد[٤] به على ما كان بينهما من اختلاف في العقيدة. ثم رحل إلى اليمن وعاد إلى مصر، وأقام بها إلى أن زالت دولة الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ورثي أهل القصر بقصيدته التي أولها:

رميت يا دهر كف المجد　　　ورعته[٥] بعد حسن الحلي

ومنها:

قدمت مصر فأولتني خلائفها　　　من المكارم ما أربى[٧] على

---

[١] شاعر وأديب مشهور توفي سنة ٥٦٩هـ.

[٢] نكس رأسه: أحناها وخفضها.

[٣] شارع بالقاهرة.

[٤] اتحد به: لازمه وأحبه.

[٥] رعته: أخفته وأزعجته.

[٦] العطل: عدم التزين.

[٧] أربى: زاد.

قوم عرفت بهم كسب الألوف   تمامها أنها جاءت ولم أسل[1]

يــا لاثمــي فــي هــوى أبنــاء   لـك الملامـة إن قصـرت فـي

بـالله زر سـاحة القصـرين وابـك   عليهمــا لا علــى صــفين

مـاذا تـرى كانـت الإفـرنج فاعلـة   بنسـل آل أمير المؤمنين على

فلما بلغت السلطان القصيدة تغير عليه وأمر بصلبه. والأقوال كثيرة عن الذين أوغروا[4] صد السلطان عليه حتى أمر بإهلاكه؛ فمنها أن السلطان استشار القاضي الفاضل[5] في شأنه فأجابه: إن الضرب لا يؤدبه، كالكلب يسكت ثم ينبح، والسجن يرجى له الخلاص منه. وأما القتل فهو وسيلة الملوك للتخلص من أعدائهم، فأمر بصلبه فصلب.

كنائس يفحم الأصمعي

قال الأصمعي[6]: مررت بكنائس يكنس كنيفاً وهو يغني ويقول:

أضـاعوني وأي فتـى أضـاعوا؟!   ليـوم كريهـة وسـداد ثغـر[7]

فقلت له: أما سداد الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه؟!

---

[1] لم أسل: لم أسأل.

[2] فاطمة: بنت الرسول.

[3] صفين: مكان بشاطئ الفرات كانت به معركة بين علي ومعاوية، والجمل موقعة أخرى كانت السيدة عائشة تركب فيها جملاً، وتحرض على قتال علي، وتنصر معاوية.

[4] أوغروا صدره: ملئوه حقداً عليه.

[5] القاضي الفاضل: من أئمة الكتب البلغاء. كان وزيراً لصلاح الدين توفي سنة ٥٩٦

[6] الأصمعي: زاوية العرب وأحد علماء اللغة توفى سنة ٢١٦.

[7] الثغر: مدخل البلد على البحر.

وأما سداد الكنيف فمعلوم. قال الأصمعي: وكنت حديث السن، فأردت العبث به؛ فأعرض عني ملياً[1]، ثم أقبل علي وأنشد:

وأكـرم نفسـي إننـي إن أهنتهـا وحقـك لـم تكـرم علـى أحـد

فقلت: وأي كرامة حصلت لها منك؟ وما يكون من الهوان أكثر- مما أهنتها؟ فقال: بل، لا والله! من الهوان ما هو أكثر وأعظم مما أنا فيه. فقلت له: وما هو؟ فقال: الحاجة إليك وإلى أمثالك؟؟ فانصرفت وأنا أخزى[2] الناس.

أبو حنيفة والإسكاف

كان لأبي حنيفة[3] جار إسكاف "بالكوفة" يعمل نهاره أجمع؛ فإذا جنه[4] الليل رجع إلى منزله بلحم وسمك، فيطبخ اللحم ويشوي السمك فإذا دب فيه السكر أنشد:

أضــاعوني وأي فتــى أضــاعوا ليــوم كريهــة وســداد ثغــر

ولا يزال يشرب ويردد البيت حتى يغلبه السكر وينام.

وكان أبو حنيفة: يصلي الليل كله، ويسمع حديثه وإنشاده.

ففقد صوته بعض الليالي، فسأل عنه، فقيل أخذه العسس منذ ثلاثة أيام وهو محبوس. فصلى الإمام الفجر وركب بغلته وسار إلى بيت

---

[1] ملياً: قليلاً.

[2] أخزى الناس: أشدهم خزياً.

[3] أبو حنيفة أحد أصحاب المذاهب الأربعة توفي سنة ١٥٠

[4] جنه الليل: احتواه وأظلم عليه.

الأمير، واستأذن عليه. فقال الأمير: ائذنوا له، وأقبلوا به راكباً حتى يطأ البساط. فلما دخل على الأمير أجلسه مكانه وقال: ما حاجة الإمام؟ فقال: لي جار إسكاف أخذه العسس[١] منذ ثلاثة أيام– فتأمر بتخليته[٢] فقال نعم، وكل من أخذتك الليلة إلى يومنا هذا. ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين.

فركب الإمام وتبعه جاره الإسكاف؛ فلما وصل إلى داره قال له الإمام أبو حنيفة: أترانا[٣] أضعناك[٤]؟ قال: لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار ورعايته. ولله علي ألا أشرب بعدها خمراً، فتاب من يومه ولم يعد إلى ما كان عليه.

بين سكير وصوام

روى الحريري[٥] في كتابه توشيح البيان: أن أحمد بن المعذل كان يحب أخاه عبد الصمد حباً عظيماً على تباين طريقهما؛ لأن أحمد كان صواماً قواماً– وكان عبد الصمد سكيراً خمورياً[٦]؛ وكانا يسكنان داراً واحدة؛ يسكن أحمد في أعلاها، وينزل عبد الصمد في أسفلها.

فدعا عبد الصمد ليلة جماعة من ندمائه، وأخذ في القصف[٧]

---

[١] العسس: رجال الشرطة.

[٢] بتخليته: بإطلاق سراحه.

[٣] أترانا: أتظننا.

[٤] أضعناك: أهملناك.

[٥] الحريري: صاحب المقامات المشهورة توفي سنة ٥١٦.

[٦] خمورياً: نسبة إلى شرب الخمور.

[٧] القصف: الأكل والشرب واللهو.

والعزف حتى منعوا أحمد الورد[1]، ونغصوا عليه التهجد[2] فاطلع[3] عليهم وقال:

{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ}[4] فرفع عبد الصمد رأسه وقال: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ}[5]

الذباب ومدعي الألوهية

ادعى الحاكم[6] بأمر الله الفاطمي الألوهية في أواخر أيامه، حتى كتب: باسم الحاكم الرحمن الرحيم!

وجمع الناس يوماً إلى الإيمان به، وبذل لهم النفائس. وكان ذلك في فصل الصيف، والذباب يتراكم على الحاكم، والخدام تدفعه ولا يندفع. فقرأ في الحفل بعض القراء- وكان حسن الصوت- قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ* مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[7].

---

(1) الورد: الجزء من القرآن والدعوات.

(2) التهجد: الصلاة بالليل.

(3) اطلع: أطل.

(4) سورة النحل ٤٥.

(5) الأنفال ٣٣.

(6) كان سفاكاً للدماء مختلط العقل توفي سنة ٣٧٩.

(7) الحج ٧٣، ٧٤.

فاضطربت الأمة[١] لعظم وقوع هذه الآية الشريفة في حكاية الحال؛ حتى كأن الله أنزلها تكذيباً للحاكم فيما ادعاه، وسقط الحاكم من فوق سريره خوفاً أن يقتل وولى هارباً.

مجنون ليلى

خرج مجنون ليلى[٢] مع أصحاب له يمتارون[٣] من وادي القرى[٤]، بجبلي نعمان[٥] فقالوا: إن هذين جبلا نعمان، وقد كانت ليلى تنزلهما. قال: فأي ريح تهب من نحو أرضها إلى هذا المكان؟ فقالوا: الصبا[٦]. فقال: لا أبرح حتى تهب الصبا فأقام في ناحية من الجبل ومضوا فامتاروا له ولهم، ثم أتوا فحسبهم حتى هبت الصبا ورحل معهم، وفي ذلك يقول:

أيـا جبلـي نعمـان بـالله خليـاً ... نسـيم الصـبا يخلـص إلـى
أجد بردها أو تشف مني حرارة ... على كبد لم يبق إلا صميمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت[٧] ... على نفس مهموم تجلت[٨]

---

[١] الأمة: المراد: المجتمعون للاعتراف بألوهيته.

[٢] هو قيس سن الملوح من أهل نجد توفى سنة ٨٠.

[٣] يمتارون: يطلبون شراء طعام لهم.

[٤] وادي القرى: واد بين المدينة والشام.

[٥] واد وراء عرفة.

[٦] الصبا: ريح تهب من المشرق.

[٧] تنسمت: هبت.

[٨] تجلت: انكشف وانزاحت.

نسيم الصبا

كان لابن الجوزي رحمه الله زوجة اسمها: نسيم الصبا فاتفق أنه طلقها؛ فحصل له عند ذلك ندم وهيام أشرف منهما على التلف؛ فحضرت في بعض الأيام مجلس وعظه، فحين رآها عرفها؛ فاتفق أن جاءت امرأتان وجلستا أمامه فحجبتاها عنه، فأنشد في الحال:

أيـا جبلـي نعمـان بـالله خليـاً نسـيم الصـبا يخلـص إلـى

السلطان صلاح الدين ورسول صاحب المدينة

قدم رسول صاحب المدينة المنورة على السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب، ومعه الهدايا.

فلما جلس أخرج من كمه مروحة بيضاء عليها سطران بالسعف الأحمر وقال: الشريف يخدم مولانا السلطان ويقول:

هذه المروحة ما رأى مولانا السلطان، ولا أحد من بني أيوب مثلها! فاستشاط[1] السلطان صلاح الدين غضباً. قال الرسول:

يا مولانا السلطان: لا تعجل قبل تأملها! وكان السلطان صلاح الدين ملكاً حليماً؛ فتأملها فإذا عليها مكتوب:

أنـا مـن نخلـة تجـاوز قبـراً ساد من فيه سائر الناس طرا

شـملتني عنايـة القبـر حتـى صرت في راحة ابن أيوب أقرا

وإذا هي من خوص النخل الذي في مسجد الرسول صلى الله عليه

[1] استشاط: اشتد به الغضب.

وسلم؛ فقبلها صلاح الدين، ووضعها على رأسه، وقال لرسول صاحب المدينة: صدقت فيما قلت من تعظيم هذه المروحة.

من ذكاء المعرى

دخل أحمد بن يوسف المنازي على أبي العلاء المعري[1] في جماعة من أهل الأدب؛ فأنشد كل واحد من شعره ما تيسر؛ ثم أنشده المنازي قوله:

وقانا لفحة الرمضاء[2] واد	**سقاه مضاعف الغيث العميم**
نزلنا دوحه[3] فحنا[4] علينا	**حنو الوالدات على الفطيم**
وأرشفنا[5] على ظمأ زلالا	**ألذ من المدامة[6] للنديم**
يصد الشمس أني واجهتها	**فيحجبها ويأذن للنسيم**
يروع حصاه حالية العذارى	**فتلمس جانب العقد النظيم**

فقال أبو العلاء: أنت أشعر من بالشام.

ثم إن المعرى رحل إلى بغداد، فدخل المنازي عليه في جماعة من أهل الأدب ببغداد، وأبو العلاء لا يعرف منهم أحداً؛ فأنشد كل واحد ما حضره من شعره؛ حتى جاءت نوبة المنازي فأنشد:

---

[1] شاعر وفيلسوف توفي سنة ٤٤٩.

[2] الأرض الحامية من شدة الحر.

[3] الدوحة: الشجرة العظيمة المظلة.

[4] حنا يحنو: عطف ومال.

[5] أرشفنا: سقانا. والظمأ: شدة العطش.

[6] المدامة: الخمر.

لقد عرض الحمام لنا بسجع	إذا أصغى له ركب تلاحي[1]
شجا[2] قلب الخلى[3] فقيل	وبرح[4] بالشجي[5] فقيل ناحاً
وكم للشوق في أحشاء صب	إذا اندملت أجد لها جراحاً[6]
ضعيف الصبر عنك وإن تقاوي	وسكران الفؤاد وإن تصاحى[7]
كذاك بنو الهوى سكرى صحاة	كأحداق المها مرضى

فقال أبو العلاء: ومن بالعراق!

وبذلك عرفه من صوته ومن جودة شعره أنه هو الذي أنشده في الشام، وشهد له بأنه أشعر من بالشام.

ويعطف هنا في بغداد فيقول: ومن بالعراق كذلك!

طفيلي

نظر طفيلي[9] إلى قوم ذاهبين، فلم يشك أنهم في دعوة، أو ذاهبون إلى وليمة؛ فقام وتبعهم. فإذا هم شعراء قد قصدوا السلطان

---

(1) تلاحي: تنازع وتشاتم.

(2) شجا: أطرب.

(3) الخلى: الخالي من الهم.

(4) برح: أتعب وأجهد وآذى إيذاء شديداً.

(5) الشجي: الحزين المشغول البال.

(6) الصب: المغرم العاشق، واندملت: تماثلت للشفاء، قربت من البرء.

(7) تقاوي: تظاهر بالقوة، وتصاحي: تظاهر بالصحو من السكر.

(8) صحاة: ج الصاحي: ضد السكران. أحداق المها: عيون البقر الوحشي. ومرضى: ج مريضة: فاترة النظر. وصحاح: ج الصحيحة.

(9) الطفيلي: هو الذي يذهب إلى الولائم بغير دعوة.

بمدائح لهم. فلما أنشد كل واحد منهم شعره، وأخذ جائزته؛ لم يبق إلا الطفيلي وهو جالس ساكت. فقال له السلطان أنشد شعرك! فقال لست بشاعر. قيل: فمن أنت؟ قال: من الغاوين[1]، الذين قال الله تعالى في حقهم: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}[2] فضحك السلطان وأمر له بجائزة الشعراء!

طبيب حاذق

روى أن ابن جميع الإسرائيلي كان من الأطباء المشهورين، والعلماء المذكورين؛ خدم سلطان مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وحظي في أيامه. وكان رفيع المنزلة، نافذ الأمر.

ومما نقل عنه في حذقه: أنه كان جالساً في دكان، وقد مرت جنازة فلما نظر إليها صاح، يا أهل الميت: إن صاحبكم لم يمت ولا يحل أن تدفنوه حياً! فقال بعضهم لبعض: هذا الذي يقوله لا يضرنا ويتعين أن نمتحنه؛ فإن كان حياً فهو المراد، وإن لم يكن حياً فما يتغير علينا شيء. فاستدعوه إليهم وقالوا: بين لنا ما قلت، فأمرهم بالعود إلى البيت، وأن ينزعوا أكفانه. فلما فرغوا من ذلك أدخله الحمام وسكب عليه الماء الحار وأحمى بدنه، ونطله[3] فظهر فيه أدنى حس، وتحرك حركة خفيفة. فقال: أبشروا بعافيته؛ ثم تمم علاجه إلى أن أفاق وصحا. فكان ذلك مبدأ اشتهاره بشدة الحذق والعلم.

---

[1] الغاوون: الضالون.

[2] الشعراء. آية ٢٤٤.

[3] نطله: تطل رأس العليل: جعل الماء المطبوخ بالأدوية في كوز ثم صبه عليه قليلاً قليلاً.

ثم إنه سئل بعد ذلك: ومن أين علمت أن في ذلك الميت بقية روح وهو في الأكفان محمول؟!

فقال: نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين، وأقدام الموتى منبسطة، فحدست[١] أنه حي، وقد كان حدسي صائباً.

التفاؤل

(١)

قيل: إن المنصور بن أبي عامر الأندلسي[٢] كان إذا قصد غزاة عقد لواءه بجامع قرطبة، ولم يسر إلى الغزاة إلا من الجامع، فاتفق أنه في بعض حركاته للغزاة توجه إلى الجامع لعقد اللواء فاجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدولة. فرفع حامل اللواء اللواء، فصادف ثرياً من قناديل الجامع، فانكسرت على اللواء، وتبدد عليه الزيت؛ فتطير[٣] الحاضرون من ذلك، وتغير وجه المنصور[٤]. فقال رجل: أبشر يا أمير المؤمنين بغزاة هينة، وغنيمة سارة! فقد بلغت أعلامك الثريا، وسقاها الله من شجرة مباركة!

فاستحسن المنصور ذلك، واستبشر به؛ وكانت الغزوة من أبرك الغزوات.

---

[١] فحدست: الحدس: الظن والتخمين والتوهم.

[٢] أحد سلاطين الدولة العامرية بالأندلس توفى سنة ٥٤٠هـ.

[٣] تطير: تشاءم.

[٤] ثاني خلفاء بني العباس توفي سنة ١٥٨هـ.

(٢)

ومثل هذه القصة: أنه لما خرج المنصور العباسي إلى قتال أبي يزيد الخارجي في جماعة من الأولياء[١]، وواجه الحصن سقط الرمح من يده؛ فأخذه بعض الأولياء فمسحه، وقال:

فألقت عصاها واستقر بها ... كما قر عيناً بالإياب[٢]

قال: فضحك المنصور، وقال: لم لا قلت: فألقى موسى عصاه!؟ فقال: يا أمير المؤمنين، تكلم العبد بما عنده من إشارات المتأدبين، وتكلم أمير المؤمنين بما أنزل على النبي من كلام رب العالمين.

فكان الأمر على ما ذكره، وحصل الظفر بأبي يزيد.

حديث عجيب

حكى إسحاق النديم عن أبيه قال:

استأذنت الرشيد أن يهب لي يوماً من الجمعة. لأنبعث فيه بجواري وإخواني. فأذن لي في يوم السبت وقال: هو يوم أستثقله، فاله فيه بما شئت. قال: فأقمت يوم السبت بمنزلي، وتقدمت لإصلاح طعامي وشرابي، وأمرت بوابي بإغلاق الباب، وألا يأذن لأحد من الناس.

فبينما أنا في مجلسي والحرم[٣] قد حففن بي، إذا أنا بشيخ عليه هيئة وجمال، وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بالفضة، وروائح

---

[١] الأولياء: الأنصار.

[٢] الإياب: العودة والرجوع.

[٣] الحرم: ما يدافع عنه الرجل ويحميه من نسائه وأهله.

الطيب تفوح منه.

فداخلني لدخوله على- مع ما قدمت من الوصية- غيظ عظيم. وهممت بطرد بوابي ومن يحجبني لأجله. فسلم علي أحسن سلام؛ فرددت عليه، وأمرته بالجلوس فجلس، وأخذ في حديث الناس، وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بي. فظننت أن غلماني قد قصدوا مسرتي بإدخاله علي لظرفه وأدبه.

فقلت له: هل لك في الطعام؟ فقال: لا حاجة لي به.

فقلت: هل لك في الشراب؟ فقال: ذاك إليك؟ قال: فشربت رطلاً وسقيته مثله.

فقال: يا أبا إسحاق، هل لك في أن تغني ونسمع منك، ما فقت به على العام والخاص؟ قال: فغاظني منه ذلك. ثم سهلت الأمر على نفسي، فأخذت العود وضربت وغنيت.

فقال: أحسنت يا إبراهيم؛ فازددت غيظاً وقلت: ما رضي بما فعله حتى سماني باسمي، ولم يحسن مخاطبتي!!

ثم قال: هل لك في أن تزيدنا ونكافئك؟- قال: فتقدمت وأخذت العود وضربت وغنيت وتحفظت، وقمت بما غنيته قياماً تاماً، فطرب وقال: أحسنت يا سيدي! ثم قال: أتأذن لعبدك في الغناء؟ فقلت: شأنك[1]، واستضعفت عقله كيف سولت[2] له نفسه أن يغني بحضرتي

---

[1] شأنك: الشأن شأنك فتصرف بما تريد.

[2] سولت: حسنت.

بعد ما سمعه مني. فأخذ العود فجسه، فو الله لقد خلته ينطق بلسان عربي، واندفع يغني:

ولي كبد مقروحة[١] من يبيعني بها كبداً ليست بذات قروح

أباها[٢] على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة

قال إبراهيم: فو الله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب، وكل ما في البيت يجيبه ويغني معه؛ وبقيت مبهوتاً[٣] لا أستطيع الكلام ولا الحركة؛ لما خالط قلبي.

ثم غنى: ألا يا حمامات اللوى

فكاد عقلي يذهب طرباً. ثم قال يا إبراهيم: خذ هذا الغناء، وانح[٤] نحوه في غنائك، وعلمه جواريك. فسألته أن يعيد ما غناه فقال: لم تحتج إلى شيء من ذلك.

ثم غاب من بين عيني، فارتعت[٥] وقمت إلى السيف فجردته ثم غدوت نحو الأبواب، وقلت للجواري: أي شيء سمعتن؟ فقلن: سمعنا أحسن غناء؛ فخرجت متحيزاً إلى باب الدار فوجدته مغلقاً. فسألت البواب عن الشيخ فقال: أي شيخ؟ والله ما دخل إليك اليوم أحد من الناس، فرجعت لأتأمل أمري، فإذا به قد هتف من بعض جوانب الدار،

---

(١) مقروحة: أي ذات قروح (جروح).

(٢) أباها: منعها.

(٣) مبهوتاً: متحيراً دهشاً.

(٤) انح نحوه: اصنع على مثاله، قس عليه.

(٥) ارتعت: اعتراني الخوف والفزع.

فقال: لا بأس عليك يا أبا إسحاق، أنا إبليس، وقد اخترت منادمتك في هذا اليوم فلا ترتع، فركبت على الفور إلى الرشيد، وأتحفته بهذه الطرفة[1]. فقال: ويحك! اعتبر الأصوات التي أخذتها عنه. فأخذت العود فإذا هي راسخة في صدري. فطرب الرشيد وأمر لي بصلة وقال: ليته متعناً يوماً واحداً كما أمتعك!

أبو جعفر المنصور وعيسى بن موسى الهادي

لما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحج بالناس قال لعيسى بن موسى الهادي: أنت تعلم أن الخلافة صائرة إليك. وأريد أن أسلم لك عمي وعمك: عبد الله بن علي؛ فخذه واقتله، وإياك[2] أن تجبن في ثم مضى المنصور إلى الحج وكتب إليه من الطريق يستحثه على ذلك؛ فكتب إليه: قد أنفذت[3] أمر أمير المؤمنين. وكان الأمر بخلاف ذلك. فلم يشك أبو جعفر أنه قتله.

ودعا عيسى بن موسى كاتبه يونس فقال له: إن المنصور دفع إلى عمه وأمرني بقتله. فقال له: إنه يريد أن يقتلك به؛ فإنه أمرك بذلك سراً، ويدعى به عليك علانية. والرأي: أن تستره[4] في منزلك، ولا تطلع عليه أحداً؛ فإن طلبه منك علانية دفعته إليه علانية، ولا تدفعه إليه سراً أبداً؛ ففعل ذلك. وقدم المنصور فدس على عمومته من يحركهم أن يسألوا

---

[1] الطرفة: الحديث الجيد المستحسن.

[2] إياك: أحذرك.

[3] أنفذت: نفذت وأمضيت رأيك.

[4] تستره: تخفيه.

المنصور أن يهب لهم أخاهم عبد الله، ففعلوا ذلك فكلموه، فأجاب وقال: نعم على بعيسى بن موسى؛ فأتاه فقال: يا عيسى! كنت دفعت إليك عمي وعمك عبد الله قبل خروجي إلى الحج، وأمرتك أن يكون في منزلك مكرماً؟ فقال: قد فعلت ذلك. قال: قد كلمني فيه عمومتك، فرأيت الصفح عنه فأتني به. قال: يا أمير المؤمنين! ألم تأمرني بقتله؟ قال: لا! بل أمرتك بحبسه عندك. ثم قال المنصور لعمومته: إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم، وادعى أني أمرته بذلك وقد كذب. قالوا: فدعه إلينا نقتله. قال: شأنكم. فأخرجوه إلى صحن الدار، واجتمع الناس واشتهر الأمر؛ فقام أحدهم وشهر سيفه وتقدم إلى عيسى ليضربه. فقال عيسى: لا تعجلوا! فإن عمي حي، ردوني[1] إلى أمير المؤمنين؛ فردوه إليه فقال: يا أمير المؤمنين، إنما أردت بقتله قتلي! هذا عمك حي، إن أمرتني بدفعه إليهم دفعته. قال: ائتنا به. فأتى به؛ فجعله في بيت فسقط عليه فمات. وكان المنصور قد وضع في أساس البيت ملحاً لما شرع في عمارته، وأعده لهذا المعنى. ولما جلس فيه عمه أجرى الماء في أساس البيت سراً، بحيث لا يشعر به أحد، فذاب الملح وسقط البيت.

جائزة أدبية

(١)

كان ابن الدقاق البلنسي[2] الشاعر المشهور: يسهر الليل مشتغلاً

---

[1] ردوني: أرجعوني.

[2] البلنسي: نسبة إلى بلنسية بلد بشرقي الأندلس محفوفة بالأنهار والجنان.

بالأدب، وكان أبوه حداداً فقيراً؛ فلامه وقال: يا ولدي! نحن فقراء، ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه. فاتفق أنه برع في العلم والأدب وقال الشعر. وعمل في أبي بكر عبد العزيز صاحب بلنسية قصيدة مطربة أولها:

يا شمس خدر مالها مغرب … وبدر تم قط لا يحجب

ومنها:

ناشدتك الله نسيم الصبا … أين استقرت بعدنا زينب

لم تسر إلا بشذا عرفها[1] … وإلا فماذا النفس الطيب

فأعطاه الأمير ثلاثمائة دينار. فجاء إلى أبيه وهو جالس في حانوته، منكب على صنعته؛ فوضعها في حجره وقال: خذ هذه وابتع منها زيتاً.

عزة وبثينة عند عبد الملك بن مروان

دخلت بثينة وعزة على عبد الملك بن مروان؛ فانحرف إلى عزة وقال: أنت عزة كثير؟ قالت: لست لكثير بعزة[2]، لكنني أم بكر– قال: أتروين قول كثير:

وقد زعمت أني تغيرت بعدها … ومن ذا الذي يا عز لا يتغير

قالت: لست أروى هذا! ولكني أروى قوله:

كأني أنادي الصم أو أكلم … من الصم لو تمشي بها العصم

[1] الشذا: شدة ذكاء الرائحة وقوتها، والعرف الرائحة مطلقاً.

[2] لست لكثير بعزة: تستنكف أن يكون كثير عاشقها.

[3] العصم: ج أعصم: الغزال في يده بياض وسواد

ثم انحرف إلى بثينة فقال: أنت بثينة جميل؟

فقالت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ما الذي رأى فيك جميل حتى لهج[١] بذكرك من بين نساء العالمين؟ قالت: الذي رأى الناس فيك، فجعلوك خليفتهم. قال: فضحك عبد الملك، وسره جوابها وفضلها على عزة في الجائزة. ثم أمرها أن يدخلا على عاتكة فدخلتا عليها؛ فقالت لعزة: أخبريني عن قول كثير:

قضى كل ذي دين فوفي   وعزة ممطول معنى غريمها

ما كان دينه؟ وما كنت وعدته؟ قالت: كنت وعدته قبلة ثم تأثمت[٣] منها. قالت عاتكة: وددت أنك فعلت، وأنا كنت تحملت إثمها عنك. ثم ندمت عاتكة واستغفرت الله تعالى، وأعتقت عن هذه الكلمة أربعين رقبة.

جود معن بن زائدة

قال الصاحب بن عباد: قرأت في أخبار معن بن زائدة الشيباني، أن رجلاً قال له: احملني أيها الأمير، فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية. ثم قال: لو علمت أن الله خلق مركوباً غير هذه لحملتك عليه، وقد أمرنا لك من الخز[٤] بجبة وقميص، وعمامة ودراعة[٥] وسراويل

---

[١] لهج: لهج بالشيء أغرى به فثابر عليه.

[٢] وفي غريمه: أدى ما عليه لدائنه، وعزة دائمة التسويف لا تفي بما عليها لغريمها.

[٣] تأثمت: خفت الإثم.

[٤] الخز: الحرير أو نسيج من صوف وحرير.

[٥] الدراعة: جبة مشقوقة من مقدمها.

ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس، ولو علمنا لباساً من الخز غير هذا لأعطيناكه.

بيوت الشعر

قالوا: إن بيوت الشعر أربعة: فخر، ومديح، وهجاء، ونسيب. وكان جرير أفحل شعراء الإسلام في الأربعة؛ فالفخر قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

والمديح قوله:

ألستم خير من ركب المطايا[1]   وأندى[2] العالمين بطون راح

والهجاء قوله:

فغض[3] الطرف إنك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

والنسيب قوله:

إن العيون التي في طرحها   قتلننا ثم لم يحيين قتلاناً

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك   وهن أضعف خلق الله إنساناً

عمر بن عبد العزيز والشعراء

لما استخلف عمر بن العزيز وفد الشعراء إليه، وأقاموا ببابه أياماً لا

[1] المطية: الدابة التي تركب.

[2] أندى: أجود وأكرم وبطون الراح كناية عن اليد.

[3] غض: أغمض، ونمير وكعب وكلاب: أسماء قبائل.

[4] الحور: شدة بياض الأبيض من العين مع شدة سواد الأسود منها.

يؤذن لهم؛ فبينما هم كذلك إذ مر بهم رجاء بن حيوة، وكان جليس عمر، فلما رآه جرير داخلاً قام إليه وأنشده:

يأيها الرجل المرخى عمامته[1]   هذا زمانك فاستأذن لنا عمراً

فدخل عليه، ولم يذكر شيئاً من أمرهم.

ثم مر بهم عدى بن أرطاة، فقال جرير أبياتاً آخرها قوله:

لا تنس حاجتنا لقيت مغفرة   قد طال مكثي عن أهلي

قال فدخل عدى على عمر فقال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة[2]، وأقوالهم نافذة. قال: ويحك يا عدي! مالي وللشعراء! قال: أعز الله أمير المؤمنين! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح وأعطى الشعراء، ولك في رسول الله أسوة حسنة. قال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة فقطع بها لسانه[3]. قال: أو تروى من قوله شيئاً؟ قال: نعم، قوله:

رأيتك يا خير البرية كلها   نشرت كتاباً جاء بالحق معلماً

شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا   عن الحق لما أصبح الحق

ونورت بالبرهان أمراً مدلساً(٤)   وأطفأت بالإسلام نوراً تضرما

فمن مبلغ عني النبي محمداً   وكل امرئ يجزى بما كان قد

---

[1] المرخى عمامته: كناية عن الرجل العظيم الشأن.

[2] سهامهم مسمومة: يريد أن هجاءهم يقتل كالسم.

[3] نقطع لسانه: نسكته.

[4] المدلس: الخفي المستور.

أقمت سبيل الحق بعد إعوجاجه   وكان قديماً ركنه قد تهدما

فقال عمر: ويلك يا عدى! من بالباب منهم؟

قال: عمر بن أبي ربيعة- قال: أليس هو الذي يقول:

ثم نبهتها فمدت كعاباً[1]   طفلة ما تبين رجع الكلام[2]

ساعة ثم إنها بعد قالت   ويلتا قد عجلت بابن الكرام

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم على نفسه لكان أستر له، لا يدخل والله علي أبداً! فمن بالباب سواه؟ قال: الفرزدق.

قال: أو ليس الذي يقول:

هما دلياني من ثمانين قامة   كما انقض باز أقتم الريش

فلما استوت رجلاي في   أحي فيرجى أم قتيل نحاذره[4]؟

لا يدخل علي والله! فمن بالباب سواه؟ قال: الأخطل.

قال: يا عدي، هو الذي يقول:

ولست بصائم رمضان طوعاً   ولست بآكل لحم الأضاحي

ولست بزاجر عيساً[5] بكوراً   إلى بطحاء مكة للنجاح

ولست بزائر بيتاً عتيقاً   بمكة أبتغي فيه صلاحي

---

[1] الكعاب: الجارية التي تهد ثدياها.

[2] يريد أن يقول: أنها صغيرة السن.

[3] الباز: من الطيور الجارحة، وأقم الريش: يميل إلى السواد.

[4] نحاذره: نحذره ونبتعد عنه.

[5] العيس: الإبل البيض يخالط بياضها سواد.

ولست بقائم بالليل أدعو قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً[1] وأسجد عند منبلج الصباح

والله لا يدخل علي وهو كافر أبداً! فمن بالباب سوى من ذكرت؟ قال: الأحوص. قال: أليس الذي يقول:

الله بيني وبين سيدها يفر مني بها وأتبعه

فما هو بدون من ذكرت! فمن هنا أيضاً؟ قال: جميل بن معمر.

قال: أليس هو الذي يقول:

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن أمت يوافق في الموتى ضريحي

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحاً لكان أصلح، والله لا يدخل علي أبداً! فهل سوى من ذكرت أحد؟

قال: جرير. قال: أما هو الذي يقول:

طرقتك[2] صائدة القلوب وليس وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإن كان ولا بد فهو الذي يدخل.

فلما مثل بين يديه قال: يا جرير، اتق الله ولا تقل إلا حقاً!

فأنشده قصيدته الرائية المشهورة التي منها:

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

---

[1] الشمول: الخمر الباردة.

[2] طرقتك: فاجأتك بالدخول عندك.

هــذى الأرامــل قــد قضــيت فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

الخيـر مـا دمـت حيـاً لا يفارقنـا بوركـت يـا عمـر الخيـرات مـن

قال عمر: يا جرير، ما أرى لك فيما ههنا حقاً. قال: بلى يا أمير المؤمنين! إني ابن سبيل ومنقطع. فقال له: ويحك يا جرير! قد وكينا هذا الأمر ولا نملك إلا ثلاثمائة درهم، فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله. يا غلام، أعطه المائة الباقية. قال: فأخذها جرير وقال: والله لهي أحب مال اكتسبته. ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوءكم، خرجت من عند خليفة يعطى الفقراء ويمنع الشعراء، وإني عليه لراض، وأنشد:

رأيـــت رقـــي الشـــيطان لا وقـد كـان شـيطاني مـن الجـن

دولة البرامكة

حدث إبراهيم بن المهدي قال: قال لي جعفر يوماً إني استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غدا. فهل أنت مساعدي؟ فقلت: جعلت فداك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمحادثتك. قال: فبكر إلى بكور الغراب قال: فأتيته عند الفجر، فوجدت الشمعة بين يديه، وهو ينتظرني للميعاد. فصلينا[2]، ثم أفضنا[3] في الحديث، وقدم الطعام فأكلنا، فلما غسلنا أيدينا خلعت[4] علينا ثياب المنادمة[1]، ثم ضمخنا[2] بالخلوق ومدت

---

[1] الرقي: جمع رقية وهي ما يقوله الساحر أو الكاهن للحصول على أمر غي طبيعي، ولا تستفزه: لا تثيره ولا تحركه ومعنى شيطانه. الشعر الذي أوحاه إليه شيطانه، وكان الشعراء يزعمون أن لكل منهم شيطانا يوحى له بالشعر.

[2] صليتا الفجر.

[3] أفاض في الحديث: توسع فيه وأطنب.

[4] خلعت: ألبسنا.

الستائر. ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب فقال له: إذا أتى عبد الملك فائذن له– يعني قهرماناناً له– فاتفق أن جاء عبد الملك ابن صالح الهاشمي، شيخ الرشيد، وهو من جلالة القدر والورع والامتناع من منادمة أمير المؤمنين على أمر جليل. وكان الرشيد. قد اجتهد أن يشرب معه قدحاً واحداً فلم يقدر عليه، ترفقاً لنفسه. فلما رفع الستر وطلع علينا سقط في أيدينا، وعلمنا أن الحاجب قد غلط بينه وبين عبد الملك القهرمان[3]. فأعظم جعفر ذلك وارتاع[4] له، ثم قام إجلالاً له فلما نظر إلى تلك الحال دعا غلامه فدفع إليه سيفه وعمامته، ثم قال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم.

فجاء إليه الغلمان فطرحوا عليه ثياب الحرير وضمخوه ودعي بالطعام فطعم وشرب ثلاثاً، ثم قال ليخفف عني: إنه شيء ما شربته والله. فتهلل وجه جعفر وفرح، ثم التفت إليه فقال: جعلت فداك! بالغت في الخير والفضل؛ فهل من حاجة تبلغ إليها قدرتي، وتحيط بها نعمتي، فأقضيها مكافأة لما صنعت؟ قال: بلى! إن في قلب أمير المؤمنين على غضبا، فتسأله الرضا عني فقال له جعفر: قد رضي أمير المؤمنين عنك.

ثم قال: وعلى عشرة آلاف دينار. فقال: هي لك حاضرة من مالي ومن مال أمير المؤمنين مثلها.

---

(1) المنادمة: المجالسة على الشراب.

(2) ضمخ بالخلوق: دهن بالطيب.

(3) القهرمان: أمين الدخل.

(4) ارتاع: انزعج وخاف.

ثم قال: ابني إبراهيم أحب أن أشد ظهره[1] بصهر من أمير المؤمنين.

قال: قد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية.

قال: وأحب أن تخفق على رأسه الألوية. قال: قد ولاه أمير المؤمنين مصر. فانصرف عبد الملك بن صالح. قال إبراهيم بن المهدي فبقيت متحيراً متعجباً من إقدام جعفر على أمير المؤمنين من غير استئذان، وقلت: عسى أن يجيبه فيما سأل من الرضا والمال والولاية. ولكن من أطلق لجعفر أو لغيره تزويج بنات الرشيد. فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأرى ما يكون.

فدخل جعفر. فلم يلبث حتى دعا بأبي يوسف القاضي، وإبراهيم ابن عبد الملك بن صالح. فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالعالية بنت الرشيد. وعقد له على مصر الرايات والألوية بين يديه وحملت البدر[2] إلى منزل عبد الملك.

وخرج جعفر فأشار إلينا وقال: تعلقت قلوبكم بحديث عبد الملك فأحببتم علم آخره.

قال: فلما دخلت على أمير المؤمنين، ومثلت[3] بين يديه قال:

كيف كان يومك يا جعفر، فقصصت عليه القصة، حتى بلغت إلى

---

[1] شد ظهره: قواه ورفع شأنه.

[2] البدر: ج بدرة وهي كيس به عشرة آلاف درهم.

[3] مثل،: وقف منتصباً.

دخول عبد الملك. وكان متكئاً فاستوي[1] جالساً وقال: إيه[2] ولله أبوك!

فقلت: سألني في رضا أمير المؤمنين. قال: فيم أجبت؟

قلت: قد رضي أمير المؤمنين عنك. قال: قد رضيت!

ثم ماذا؟ قلت: ذكر أن عليه عشرة آلاف دينار. قال: فيم أجبته؟ قلت: قد قضاها أمير المؤمنين عنك. قال: قد قضيت. قلت: وذكر أنه راغب في أن يشد ظهره ولده بصهر منك قال: فيم أجبته؟ قلت: قد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية. قال: قد أمضيت ذلك. ثم ماذا لله أبوك!!

قلت: وذكر أنه يشتهي أن تخفق على رأس ولده إبراهيم الألوية قال: فيم أجبته؟ قلت: قد ولاه أمير المؤمنين مصر.

قال: قد وليته.

فأحضر إبراهيم والقضاة والفقهاء، وأتم له جميع ذلك من ساعته قال إبراهيم بن المهي: فو الله ما أدري أيهم أكرم وأعجب؟! ما ابتدأه عبد الملك من الموافقة وشرب الخمر، ولم يكن شربها قط ولباسة ما ليس من لبسه من ثياب المنادمه؟

أم إقدام جعفر على الرشيد بما أقدم

أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر؟!

---

[1] استوى: اعتدل.

[2] إيه: زدني.

علم النجوم

حكي عن أبي معشر البلخي[1]، المنجم الإمام، صاحب التصانيف المفيدة في علم النجوم– أنه كان متصلاً بخدمة بعض الملوك. وأن ذلك الملك طلب رجلاً من أتباعه وأكابر دولته، ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه، فاستخفى. وعلم أن أبا معشر يدل عليه بالطريقة التي يستخرج بها الخبايا والأشياء الكامنة.

فأراد أن يعمل شيئاً حتى لا يهتدي إليه، ويبعد عنه حديثه فأخذ طستاً[2] وجعل فيه دماً، وجعل في الدم هاون ذهب وقعد على الهاون أياماً. وتطلبه الملك وبالغ في الطلب. فلما عجز عنه أحضر أبا معشر، وطلب منه إظهاره، فعمل المسألة التي يستخرج بها الخفي من الأمور. وسكت زماناً حائراً. فقال له الملك ما سبب سكوتك وحيرتك؟!

فقال: أرى شيئاً عجيباً! فقال: وما هو؟ قال: أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب في بحر من دم، ولا أعلم في العالم موضعاً على هذه الصفة. فقال له: أعد نظرك. ففعل، ثم قال: ما أرى إلا ما ذكرت، وهذا شيء ما وقع لي مثله.

فلما أيس[3] الملك من الحصول عليه، نادى في البلد بالأمان للرجل ومن أخفاه عنده. فلما اطمأن الرجل ظهر وحضر بين يدي الملك

---

[1] هو جعفر بن محمد بن عمر اليلخي، المنجم المشهور كان إمام وقته فنه في علم الفلك، وله فيه تصانيف ممتعة توفي سنة ٢٧٢هـ.

[2] الطست: إناء من نحاس لغسل الأيدي والملابس.

[3] أيس: يئس وانقطع رجاؤه.

فسأله عن الموضع الذي كان فيه. فأخبره بما اعتمد عليه[1].

فأعجبه حسن احتياله في إخفاء نفسه، ولطافة أبي معشر المنجم في استخراجه.

دواء عجيب

كان بعض الملوك قديماً، كثير الشحم لا ينتفع بنفسه، فجمع الحكماء وقال: احتالوا لي بحيلة كي يخف عني لحمي هذا قليلاً. فما قدروا له على شيء.

فجاء رجل عاقل لبيب متطبب[2] فقال له الملك: عالجني ولك ما شئت من المال، قال: أصلح الله الملك! أنا طبيب منجم دعني حتى أنظر الليلة في طالعك[3] لأرى أي دواء يوافقه فلما أصبح قال: أيها الملك الأمان! فلما أمنه قال: رأيت طالعك يدل على أنه لم يبق من عمرك غير شهر واحد، فإن اخترت عالجتك، وإن شئت معرفة صدق ذلك فاحبسني عندك فإن كان لقولي حقيقة فخل عني[4] وإلا فاقتص مني[5].

فحبسه الملك وأمر برفع الملاهي واحتجب عن الناس، وخلا وحدة مغتماً، وكلما مضى يوم من الشهر زادهما وعما حتى هزل جسمه وخف لحمه وذاب شحمه.

---

[1] بما اعتمد عليه: بالحيلة التي صنعها لإخفائه.

[2] متطبب: عالم بالطب.

[3] الطالع من النجوم هو الصاعد في الأفق من المشرق.

[4] خل عني: اتركني.

[5] اقتص: عاقب.

فلما لم يبق من الشهر إلا يوم واحد بعث الملك إلى المنجم فأخرجه من سجنه، وقال له: ما ترى؟ قال: أعز الله الملك أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب، والله إني لم أعلم عمري، فكيف أعلم عمرك؟! ولكن لم يكن عندي دواء لك إلا الغم، فلم أقدر أن أجلب إليك الغم إلا بهذه الحيلة. قان الغم يذيب الشحم؛ فأجازه[1] الملك على ذلك، وأحسن إليه غاية الإحسان وذاق الملك حلاوة الفرح بعد مرارة الغم.

الوزير المهلبي

كان الوزير المهلبي قبل اتصاله بمعز الدولة بن بوبه في شدة[2] عظيمة من الضرورة والمضايقة. وسافر وهو على تلك الحال. ولقي في سفره شدة عظيمة. فاشتهى اللحم فلم يقدر عليه. فقال ارتجالا

ألا مــــوت يبــــاع فاشــــتريه	فهـذا العـيش مـالا خيـر فيـه[3]
ألا مــوت لذيــذ الطعــم يــأتي	يخلصني من العيش الكريه[4]
أذا أبصــرت قبــراً مــن بعيــد	وددت لـو أننـي فيمـا يليـه[5]
ألا رحــم المهــيمن نفــس حــر	تصـدق بالوفـاة علـى أخيـه[6]

وكان له رفيق يقال له: أبو الحسن العسقلاني. فلما سمع الأبيات

---

[1] أجازه: أعطاه جائزة.

[2] شدة عظيمة: بؤس وفقر.

[3] ما لا خير فيه: أي العيش الذي لا خير فيه (ما) هنا موصولة.

[4] الكريه: المكروه.

[5] أحببت أني في جوف هذا القبر.

[6] الوفاة: الموت.

اشترى له لحماً بدرهم وطبخه وأطعمه؛ ثم تفارقا وتنقلت الأحوال وولى الوزارة يبغداد لمعز الدولة بن بوبه، وضاق الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم في السفر. وبلغه أن المهلبي قد صار وزيراً فقصده وكتب إليه.

ألا قــل الــوزير فدتــه نفســي   مقــال مــذكر مــا قــد نســيه
أتــذكر إذ تقــول لضــيق عــيش   ألا مــوت يبــاع فاشـــتريه؟!

فلما وقف عليها تذكر حاله الأولى، وهزته أريحية[1] الكرم فأمر له بسبعمائة درهم، ووقع له في رقعته:

{مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ} [البقرة: ٢٦١].

ثم دعا به فخلع عليه. وقلده عملاً يرتفق[2] منه.

أبو علي الفارسي

حكى أبو القاسم الأندلسي قال: جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي[3] وأنا حاضر فقال: إني لأغبطكم[4] على قول الشعر: فإن

---

(١) الأريحية: خصلة تجعل الإنسان يرتاح إلى الكرم والأفعال الحميدة.

(٢) يرتقق منه: يعتمد عليه في رزقه.

(٣) أبو علي الفارسي: أو حد زمانه في النحو والتصريف كان إماماً من أئمة القياس في النحو، وكان يقول: أخطئ في مائة مسألة لغوية، ولا أخطئ في واحدة قياسه، أقام مدة بحلب في عهد سيف الدولة بن حمدان، ثم رجع إل بغداد، فنال حظوة كبيرة عند عضد الدولة بن بويه، ومن تلاميذه ابن جنى وله كثير من التصانيف توفى ببغداد ٣٧٧هـ.

(٤) أغيظكم: أتمنى أن يكون لي مثل ما عندكم.

خاطري لا يواتيني[1] على ذلك مع تحقيق العلوم التي هي معاده

فقال له رجل: فما قلت قط شيئاً منه؟ قال: ما أعلم أن لي شعراً غير ثلاثة أبيات في الشيب هي قولي:

خضبت الشيب لما كان عيباً وخضب الشيب أولى أن

ولم أخضب مخافة هجر خل ولا عيباً خشيت ولا عتاباً

ولكن المشيب بدا ذميماً فصيرت الخضاب له عقاباً

حماد الراوية

قال حماد الراوية كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان ف خلافته؟ وكان أخوه هشام يجفوني[2]، لذلك لما مات يزيد وأفضت[3] الخلافة إلى هشام خفته، ومكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من إخواني سراً.

فلما لم أسمع أحداً ذكرني في السنة أمنت وخرجت؛ وصليت الجمعة في الرصافة[4] فإذا شرطيان قد وقفا علي وقالا: يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي، وكان والياً على العراق، فقلت في نفسي من هذا كنت أخاف ثم قلت لهما: دعاني حتى أتى أهلي وأودعهم ثم أسير معكما؛ فقالا: ما إلى ذلك من سبيل، فاستسلمت في أيديهما ثم

---

[1] يواتيني: يطاوعني.

[2] يجفوني: يعرض عني ولا يرتاح لي.

[3] أفضت: صارت وانتقلت.

[4] الرصافة: محله ببغداد.

صرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان[1] الأحمر، فسلمت عليه فرد السلام ورمى إلي بكتاب فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر (أما بعد) فإذا قرأت كتابي هذا فأبعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع، وادفع إليه خمسمائة دينار، وجملا مهرياً[2]يسير عليه ثنتى عشرة ليلة إلى دمشق.

فأخذت الدنانير، ونظرت فإذا جمل مرحول[3] فركبت وسرت حتى وافيت دمشق في ثنتى عشرة ليلة، فنزلت على باب هشام، واستأذنت فأذن لي فدخلت عليه وهو جالس على طنفسة[4] حمراء وعليه ثياب من حرير أحمر (وقد ضمخت بالمسك) فسلمت عليه فرد علي السلام، واستدناني منه فدنوت فإذا جاريتان لم أر أحسن منهما قط فقال:

كيف أنت وكيف حالك؟ فقلت: بخير يا أمير المؤمنين.

قال: أتدري فيما بعثت إليك؟ قلت: لا

قال: بعثت إليك بسبب بيت من الشعر خطر ببالي ولا أعرف قائله.

قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟!.

---

(1) الإيوان: المكان المتسع من البيت تحيط به ثلاث حوائط

(2) مهرياً: نسبة إلى مهرة مشهورة جمالها بسرعة الجري والسير.

(3) مرحول: عليه رحل.

(4) الطنفسة: البساط.

قال:

ودعوا بالصبوح[١] يوماً فجاءت قينة[٢] في يمينها إبريق

فقلت: يقوله عدي بن يزيد العبادي في قصيدة.

قال: أنشدنيها. فأنشدته:

بكر العاذلون في وضح يقولون لي: أما تستفيق؟

ويلومون فيك يابنة عبد الله والقلب عندكم موثوق[٤]

لست أدري إذا كثر العذل[٥] أعذول يلومني أم صديق

قال حماد فأنهيت فيها إلى قوله

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق

قدمته على عقار[٦] كعين يديك صفي سلافها[٧]

مرة قبل مزجها فإذا ما مزجت لذ طعمها من يذوق

قال فطرب هشام، ثم قال: أحسنت يا حماد، سل حاجتك قلت: إحدى الجاريتين– قال: هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما– ثم أقام عنده مدة طويلة ووصله بمائة ألف درهم.

---

[١] الصبوح: الخمرة التي تشرب صباحاً.

[٢] القينة: الجارية المغنية.

[٣] جاء اللائمون مبكرين.

[٤] موثوق: مفيد بالوثاق.

[٥] العذل: اللوم.

[٦] العقار: الخمر.

[٧] السلاف: ما سال وتحلب قبل العصر.

[٨] الراووق: المصفاة.

خالد الكاتب[1]

-١-

قال ثعلب: ما أحد من الشعراء تكلم في الليل الطويل إلا قارب[2] ولكن خالداً الكاتب أبدع فيه فقال

رقدت فلم ترث[3] للساهر		وليل المحب بلا آخر

ولم تدر بعد ذهاب الرقاد		ما صنع الدمع بالناظر

وقال بعض من كان يحضر مجلس المبرد: كنا نختلف إليه[4] فإذا كان آخر المجلس أملي علينا من طرف الأخبار وملح الأشعار ما نرتاح إلى حفظه. فأنشدنا يوماً مرثية زباد الأعجم في المغيرة بن المهلب التي منها

فإذا مررت بقبره فاعقر له		كوم الهجان وكل طرف

وانضح جوانب قبره بدمائها		فلقد يكون أخا- دم وذبائح[6]

قال فخرجت من عنده وأنا أديرها في لساني لأحفظها؛ فإذا الشيخ قد خرج من خربة، وفي يده حجر. فهم أن يرميني به فترست[7] بالمحبرة

---

[1] هو أبو الهيثم من أهل بغداد، وأصله من خراسان، شاعر مشور، رقيق الشعر كان من كتاب الجيش، ثم ولاه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات عملاً ببعض الثغور توفى ببغداد سنة ٢٦٩هـ.

[2] قارب: أي قارب الوصف.

[3] لم ترث: لم ترق ولم ترحم.

[4] نختلف إليه: نذهب إليه.

[5] المعنى: إذا مررت بقبره فانحر عليه السمين من الإبل البيض، وكذلك كل جواد أصيل سابح (سريع العدو).

[6] أخادم (أخا- دم) مضاف ومضاف إليه.

[7] تترست: اتخذت ترساً: احتميت.

والدفتر فقال ماذا تقول أتشمني؟

فقلت: اللهم لا، ولكني كنت عند أستاذنا أبي العباس المبرد فأنشدنا مرثية زباد الأعجم في المغيرة بن المهلب، فقال له إيه إيه! [1] أنشدني ما أنشدكم باردكم لا مبردكم، فأنشدته، فقال: والله ما أجاد الراثي، ولا أنصف المرثي، ولا أحسن الراوي. قلت: فما عساه أن يقول؟ قال كان يقول:

احملانـي إن لـم يكـن لكمـا   إلـى جنـب قبـره فـاعقراني

وانضحا[3] من دمي عليه فقد   دمي من نداه لو تعلمان

قلت: هل رأيت أحداً واسى[4] أحداً بنفسه؟ قال: نعم

هذا الفتى الفتح بن خاقان طرح نفسه على المتوكل حتى خلط لحمه بلحمه، ودمه بدمه- ثم تركني وتولى- فلما عدت إلى المبرد وقصصت عليه القصة؛ قال: أتعرفه؟ قلت: لا قال: ذلك خالد الكاتب تأخذه السوداء[5] أيام الباذنجان.

-٢-

ومما يروى عن خالد الكاتب أنه لما كبر دق عظمه ورق جلده

---

[1] إيه: بمعنى زدني.

[2] عقر: ما يعقر ويذبح.

[3] انضحاء: رشا

[4] واسي: عاون وساعد

[5] السوداء: اضطراب العقل.

وقوى به الوسواس[١] ورؤى ببغداد، والصبيان يتبعونه فأسند ظهره إلى قصر المعتصم، والصبيان يصيحون به:

يا بارد، فقال: كيف أكون بارداً وأنا الذي أقول:

بكى عاذلي من رحمتي فرحمته ... وكم مثله من مسعد ومعين

ورقت دموع العين حتى كأنها ... دموع دموعي لا دموع جفوني

-٣-

وحدث ابن مقلة عن عمه قال: اجتاز بي خالد الكاتب وأنا على باب داري (بسر من رأى) والصبيان حوله يعبثون به فجاءني لما رآني. وسألني صرفهم عنه، فصرفتهم وأدخلته داري وقلت له: ما تشتهي أن تأكل؟ قال: الهريسة. فتقدمت بإصلاحها له. فلما أكل قلت: أي شيء تحب بعد هذا؟ قال: رطباً. فأمرت بإحضاره، فلما فرغ من أكله قلت: أنشدني من شعرك، فأنشدني:

تناسيت ما أوعيت سمعك يا ... كأنك بعد الضر خال من

فإن كنت مطبوعاً على الصد ... فمن أين لي صبر فأجعله

لئن كان أضحى فوق خديك ... فإن على خدي غديراً من

فقلت به زدني، فقال: لا يساوي تهريسك ورطبك غير هذا

---

[١] الوسواس: اضطراب العقل.

[٢] يريد أن يقول: إنه نسى كل ما دعاه وحفظه.

[٣] شبه ما على خد محبوبه من الحسن بالروضة ذات الورد والزهر. وشبه ما على خده من دموع جارية بالغدير الذي ينساب ماؤه.

-٤-

ومن المروى عن خالد الكاتب قال بعض طلبة المبرد: خرجت من مجلس المبرد فلقيت خالداً الكاتب، فقال: من أين؟ قلت: من مجلس المبرد قال: بل البارد ثم قال: ما الذي أنشدكم اليوم؟ قلت: أنشدني:

أعـــار الغيـــث نائلـــه[١] إذا مـــا مـــاؤه نفـــداً[٢]

وإن أســـداً شـــكا حنبـــا[٣] أعـــار فـــؤاده الأســـدا

فقال: ألا تعلم أنه إذا أعار الغيث نائله بقى بلا نائل وإذا أعار الأسد فؤاده بقى بلا فؤاد؟

قلت: فكيف كان يقول؟ فأنشد:

علـم الغيـث النـدي[٤] مـن يـده مذ دعاه علم البأس[٥] الأسد

فـإذا الغيـث مقـر بالنـدى وإذا الليـث مقـر بالجلـد[٦]

قال: فكتبهما وانصريت

أبو دلامة[٧]

دخل أبو دلامة على المهدي، فأنشده قصيدة فقال له: سل

---

[١] النائل: العطاء والجود.

[٢] نفد: لم يبق منه شيء.

[٣] الحنب: الضعف وتقوس الظهر من الكبر.

[٤] الندى: الجود والعطاء.

[٥] البأس: الشدة والقوة.

[٦] الجلد: البأس

[٧] هو زين بن الجون، كان ذا أدب وفكاهة وكان أسود حبشياً.

حاجتك فقال: يا أمير المؤمنين هب لي كلباً! فغضب المهدي غضباً شديداً. أقول لك سل حاجتك، فتقول: هب لي كلباً؟

فقال يا أمير المؤمنين. الحاجة لي أولك؟ فقال: بل لك. فقال إني أسألك أن تهب لي كلب صيد، فأمر له بكلب صيد.

فقال يا أمير المؤمنين: هبني[1] خرجت للصيد أعدو على رجلي فأمر له بداية، فقال يا أمير المؤمنين: فمن يقوم عليها؟ فأمر له بغلام فقال يا أمير المؤمنين: هبني صدت صيداً وأتيت به المنزل فمن يطبخه، فأمر له بجارية، فقال يا أمير المؤمنين: فهؤلاء أين يبيتون فأمر له بدار. فقال: يا أمير المؤمنين قد صيرت في عنقي عيالاً[2] فمن أين لي ما بقوت هؤلاء؟

قال المهدي: أعطوه جريب نخل[3]. ثم قال هل بقيت لك حاجة؟ قال: نعم، تأذن لي أن أقبل يدك.

هشام بن عبد الملك

قدم هشام بن عبد الملك[4] حاجاً إلى بيت الله الحرام؛ فلما دخل الحرم قال: ائتوني برجل من الصحابة، فقيل له: يا أمير المؤمنين قد تفانوا[5] قال فمن التابعين فأتي بطاوس اليماني، فلما دخل عليه خلع

---

[1] هبني فعل من أخوات ظن ولكنه، لا ينصرف. ومعناه: قدر وافترض

[2] العيال: ما يعطوهم الإنسان من أولاده أو غيرهم.

[3] جريب نخل: مزرعة نخل.

[4] من خلفاء الدولة الأموية توفي سنة ١٢٥هـ.

[5] تفانوا: ماتوا

نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بأمير المؤمنين ولم يكنه[1] وجلس إلى جانبه بغير أذنه وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب من ذلك غضباً شديداً حتى هم بقتله فقيل له: يا أمير المؤمنين أنت في حرم الله وحرم رسوله، فلا يكون منك ذلك ثم التفت إلى طاوس وقال له: ما حملك على صنعت؟

قال: وما صنعت؟ قال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلم علي يا أمير المؤمنين، ولم تكنني، وجلست بازائي بغير إذني، وقلت: يا هشام كيف أنت؟

فقال له طاوس: أما خلع نعلي بحاشية بساطك، فإني أخلعهما بين يدي رب العزة في كل يوم خمس مرات، ولا يعاتبني ولا يغضب علي وأما قولك: لم تسلم علي بإمرة أمير المؤمنين، فليس كل المؤمنين راضياً بإمرتك فخفت أن أكون كاذباً، وأما قولك: تكنني فإن الله عز وجل سمى أنبياءه فقال: يا داود! يا يحيى! يا عيسى! وكنى أعداءه فقال: تبت يد أبي لهب! وأما قولك: جلست بازائي، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام.

فقال هشام: عظي يا طاوس؛ فقال: إنس سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إن في جهنم حيات وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير

---

[1] (لم يكنه) كنى يكني ويكنو كنية (والكنية في الاسم ما صدرت بأب أو أم ومعناه: لم يقل له: يا أبا فلان، كما جرت العادة عند التعظيم).

لا بعدل في رعيته. ثم قام وخرج.

الشعبي عند ملك الروم

قال الشعبي: أنفذني[1] عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم، فلما وصلت إليه- جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبته؛ وكانت الرسل لا تطيل الإقامة فحبسني[2] عنده أياماً كثيرة، فلما أردت الانصراف قال: أمن بيت الملك أنت! فقلت: لا، ولكني من العرب، فدفع إلى رقعة[3] وقال: إذا أديت الرسائل إلى صاحبك- وصل إليه هذه الرقعة.

وقال: فأديت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك وأنسيت الرقعة فرجعت فأوصلتها إليه؛ فقال لي: هل قال لك شيئاً قيل أن يدفعها إليك قلت: نعم؛ قال لي: أنت من أهل بيت الملك؟ قلت: لا ولكني رجل من العرب في الجملة؛ ثم خرجت من عند عبد الملك، فلما بلغت الباب طلبني فرددت، فلما مثلت بين يديه قال: أتدري ما في الرقعة؟ قلت: لا، قال: اقرأها، فقرأتها، فإذا فيها: عجبت من قوم فيهم مثل هذا، كيف ملكوا غيره؟ قلت: يا أمير المؤمنين لو علمت ما فيها ما حملتها، وإنما قال هذا لأنه لم يرك. قال: أتدري لم كتبها؟ قلت: لا قال: حسدني عليك فأراد أن يغريني بقتلك[4]

---

[1] أنفذني: بعثني وأرسلني.

[2] حبسني أقامني عنده.

[3] الرقعة: القطعة من الورق يكتب الشخص فيها ما يريده.

[4] يغريني بقتلك: يدفعني إلى قتلك.

الوزير ابن الفرات

حكى الصابي[١] في كتاب الأعيان والأمثال: أن رجلاً اتصلت عطلته[٢] وانقطعت مادته[٣] فزور كتاباً من الوزير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسي- إلى ابن زيتون المارد أني عامل مصر يتضمن المبالغة في الوصايا وزيادة الإكرام وعمل المصالح، فلما دخل مصر اجتمع بابن زيتون، ودفع إليه الكتاب، فلما قرأ ابن زيتون الكتاب ارتاب[٤] في أسره، لتغير لفظ الخطاب عما جرت به العادة، وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله، فراعاه مراعاة قريبة، ووصله صلة قليلة وحبسه عنده على وعد وعده به ثم كتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الذي ورد عليه وأنفذه[٥] بعينه. فلما وقف عليه ابن الفرات عرف الرجل، وذكر ما كان عليه من الحرمة وماله من الحقوق القديمة عليه، فعرضه على كتابه وعرفهم الصورة وعجب إليهم منها.

وقال لهم: ما الرأي في مثل هذا الرجل؟ فقال بعضهم: تأديبه وقال بعضهم: قطع إبهامه، وقال أجملهم محضراً: يكشف لابن زيتون أمره، ويرسم له[٦] بطرده وحرمانه.

---

[١] هو أبو الفضل جعفر بن الفضل، كان وزير بني الأخشيد بالديار المصرية مدة إمارة كافور، وأحمد بن علي بن الأخشيد بالديار المصرية والشامية، كان عالماً محباً للعلماء، وله تأليف في الأنساب توفي سنة ٣٩١هـ.

[٢] العطلة: البقاء بلا عمل.

[٣] انقطعت مادته: انقطعت موارده ومكاسبه.

[٤] ارتاب: شك.

[٥] أنفذه: أرسله.

[٦] يرسم له: يكتب إليه ويشار عليه.

فقال ابن الفرات: ما أبعدكم من الخير!! رجل توسل بنا وحمل المشقة إلى مصر، وأمل الخير بجاهنا، والانتساب إلينا- يكون حاله عند أحسنكم نظراً تكذيب ظنه وتخييب سعيه، والله لا كان أبداً ثم أخذ القلم ووقع على الكتاب المزور:

هذا كتابي ولست أعلم لم أنكرت أمره، واعترضتك فيه شبهة وليس كل من يخدمنا تعرفه، وهذا رجل خدمني أيام نكبتي، فأحسن تفقده ورفده[1] وصرفه فيما يعود نفعه عليه، ثم رد الكتاب إلى ابن زيتون من يومه.

ومضت على ذلك مدة طويلة، إذ دخل على ابن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وبزة[2] جميلة، فأقبل يدعو له ويثني عليه ويبكي ويقبل يديه والأرض؛ فقال له ابن الفرات: من أنت بارك الله فيك؟ قال: صاحب الكتاب المزور إلى ابن زيتون الذي صححه كرم الوزير بفضله. فضحك ابن الفرات وقال: كم وصل إليك منه؟ قال: أوصل إلى من ماله ومن قسط قسطه على عماله عشرين ألف دينار. فقال: الحمد لله على صلاح حالك.

ثم اختبره فوجده كاتباً سديداً[3] فاستخدمه.

---

[1] الرفد: العطاء.

[2] البزة: الثياب.

[3] سديداً: صائب الرأي، محسناً في عمله.

كافور في يوم العيد

كان أبو بكر المحلي يتولى نفقات أبي المسك كافور الإخشيدي؛ وكان له في عيد الأضحى عادة، وهي أن يسلم إلى أبي بكر المذكور بغلاً محملاً ذهباً وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى الجبانه وما بينهما؛ قال أبو بكر المذكور: وكان يمشي معي صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل؛ وأطواف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك إلى من تضمنت اسمه الجريدة.

فأطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة، وأقول: الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدي يهنئك بالعيد ويقول لك: اصرف هذا في منفعتك. فأدفع إليه ما جعله له.

وفي آخر وقت زاد في الجريدة الشيخ أبا عبد الله بن جابار، وجعل له في ذلك العيد مائة دينار.

قطفت في تلك الليلة وأنفقت المال في أربابه[1] ولم يبق إلا الصرة فجعلتها في كمي، وسرت مع النقيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة.

فطرقت الباب، فنزل إلينا الشيخ وعليه أثر السهر فسلمت عليه فلم يرد علي وقال: ما حاجتك؟ قلت: الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام فقال: وإلى بلدنا؟ قلت: نعم قال: حفظه الله، الله يعلم أني أدعو له في الخلوات وأدبار الصلوات بما الله سامعه ومستجيبه قلت: وقد أنفذ معي هذه الصورة ويسألك قبولها، والتصرف في مئونة

---

[1] أربابه: من يستحقونه.

هذا العبد المبارك.

فقال: نحن رعيته ونحبه في الله تعالى، وما نفسد هذه المحبة بعلة فراجعته القول، فتبين لي الضجر في وجهه والقلق، واستحيت من الله أن أقطعه عما هو عليه، فتركته وانصرفت.

قال: فجئت فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب وهو ينتظرني، فلما رآني قال: إيه يا أبا بكر. قلت: أرجو الله أن يستجيب فيك كل دعوة صالحة دعيت لك في هذه الليلة، وفي هذا اليوم الشريف. فقال: الحمد لله الذي جعلني لإيصال الراحة إلى عباده؛ ثم أخبرته بامتناع ابن جابار. فقال: نعم. هو جدير، لم تجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم، قال لي: عد إليه واركب دابة من دواب النوبة واطرق بابه. فإذا نزل إليك، فإنه سيقول لك: ألم تكن عندنا؟ فلا ترد عليه ثم استفتح واقرأ: [(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم {طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى*إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى* تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلى* الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى* لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}

يا بن جابار: الأستاذ كافور يقول لك:

ومن كافور العبد الأسود؟ ومن هو مولاه؟ ومن الخلق؟.

ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة، تلاشي الناس كلهم ههنا أتدري.

---

(١) سورة طه آية ١

من هو معطيك؟ وعلى من رددت؟.

أنت ما سألت، وإنما هو أرسل لك، يا بن جابار، أنت ما تفرق بين السبب والمسيب؟.

قال أبو بكر: فركبت وسرت فطرقت منزله فنزل فقال لي: مثل لفظ كافور، فأضربت عن الجواب، وقرأت طه، ثم قلت له ما قال لي كافور، فبكى وقال لي: أين ما حملت؟ أخرجت الصرة فأخذها وقال: علمنا الأستاذ كيف نتصوف، قلت: أحس الله جزاءك ثم عدت إليه فأخبرته بذلك فسر وسجد لله شكراً وقال: الحمد لله على ذلك.

الفارابي وسيف الدولة

ورد أبو نصر الفارابي إلى دمشق على سيف الدولة بن حمدان– وهو إذ ذاك سلطانها. قيل إنه لما دخل عليه وهو بزي الأتراك وكان ذلك زيه دائماً وقف فقال له سيف الدولة: اجلس، فقال: حيث أنا[١] أو حيث أنت؟ فقال: حيث أنت[٢] فتخطى رقاب الناس حتى أتى مسند[٣] سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه؛ وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يسارهم[٤] به.

فقال لهم بذاك اللسان: إن هذا الشيخ قد أساء الأدب؛ وإني مسائله عن أشياء إن لم يعرفها فأخرجوا به. فقال له أبو نصر بذلك

---

(١) حبت أنا: حبت مقامي ومركزي.

(٢) حيت مقامك ومركزك.

(٣) المسند: ما يستند إليه.

(٤) يسارهم: يكلمهم به سراً.

اللسان: أيها الأمير اصبر، فإن الأمور بعواقبها، فعجب سيف الدولة منه وعظم عنده؛ ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في كل فن. فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل، حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده؛ ثم أخذوا يكتبون ما يقوله، فصرفهم سيف الدولة وخلا به فقال له: هل لك في أن تأكل؟ قال: لا. قال: فهل لك أن تشرب؟[١] قال: لا. فقال: هل تسمع؟ قال: نعم. فأمر سيف الدولة بإحضار القيان. فحضر كل ماهر في الصنعة بأنواع الملاهي. فخطأ الجميع! فقال له سيف الدولة: هل تحسن هذه الصنعة؟ قال: نعم.

ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها فأخرج منها عيداناً وركبها. ثم لعب بها، فضحك كل من في المجلس، ثم فكها وركبها تركيباً آخر، فبكى كل من في المجلس حتى البواب، فتركهم نياماً وخرج؛ وهو الذي وضع القانون. وكان منفرداً بنفسه لا يجالس الناس. وكان مدة إقامته بدمشق لا يكون غالباً إلا عند مجتمع المياه، أو مشتبك الرياض وهناك يؤلف كتبه. وكان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل[٢] بأمر مسكن ولا مكسب. وسأله سيف الدولة في مرتب من بيت المال فقال: يكفيني أربعة دراهم. ولم يزل على ذلك إلى أن توفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة بدمشق. وصلى عليه سيف الدولة وأربعة من خواصه وقد ناهز الثمانين. ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير.

---

[١] تشرب: تشرب خمراً.

[٢] يحتفل: يهتم.

عفو الرسول عن ابنة حاتم الطائي

لما أتى بسبايا طئ إلى النبي عليه السلام تقدمت جارية[١] جميلة ذات فصاحة ولسن[٢] فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي سبيلي ولا تشمت في أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يفك العاني[٣] ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويفشي السلام، ولا يرد طالب حاجة قط. أنا بنت حاتم الطائي.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذه صفات المؤمنين، خلوا عنها[٤] فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.

أجواد العرب

أقبل ركب من بني أسد وبني قيس يريدون النعمان، فلقوا حاتماً فقالوا: تركنا قومنا يثنون عليك، وقد أرسلوا إليك رسالة قال: وما هي؟ فأنشده الأسديون شعراً للنابغة فيه؛ فلما أنشدوه قالوا: إنا نستحي أن نسألك شيئاً وإن لنا حاجة، قال: وما هي؟ قالوا: صاحب لنا قد أرحل، يعني فقت راحلته فقال: حاتم: خذوا فرسي هذه فاحملوه عليها فأخذوها، وربطت الجارية فلوها[٥] بثوبها، فأفلت يتبع أمه فتبعته الجارية لترده فصاح حاتم: ما تبعكم فهو لكم. فذهبوا بالفرس والفلو والجارية.

---

[١] جارية: لأنها صارت بعد السبي جارية.

[٢] اللسن: فصاحة اللسان.

[٣] العاني: المغلوب على أمره.

[٤] خلوا عنها: أطلقوا سراحها.

[٥] الفلو: ولد الفرس.

قيل: أجواد العرب في الجاهلية ثلاثة: حاتم الطائي، وهرم بن سنان وكعب بن مامة.

وحاتم كان أشهرهم بالكرم.

أجواد الإسلام

وحكى الهيثم بن عدي قال: تماري[1] ثلاثة في أجواد الإسلام. فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا هذا، عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وقال آخر: أسخى الناس عرابة الأوسي، وقال آخر: بل قيس بن سعد بن عبادة؛ وأكثروا الجدل في ذلك وكثر ضجيجهم، وهو بفناء الكعبة.

فقال لهم رجل: قد أكثرتم الجدال في ذلك فما عليكم أن يمضي كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه، ونحكم على العيان. فقام صاحب عبد الله إليه، فصادفه قد وضع رجله في غرز ناقته[2] يريد ضيعة له فقال: يا بن عم رسول الله. قال: قل ما تشاء.

قال: ابن سبيل ومنقطع به. قال فأخرج رجله من غرز الناقة وقال له ضع رجلك واستو[3] على الراحة وخذ ما في الحقيبة، واحتفظ بسيفك، فإنه من سيوف علي بن أبي طالب.

---

[1] تماري: تنازع وتجادل.

[2] الغرز: ركاب الرحل الذي يضع الراكب فيه رجله.

[3] استو: اركب.

قال: فجاء بالناقة، والحقيبة فيها مطارف[1] خز وأربعة آلاف دينار وأعظمها واجلها السيف.

ومضى صاحب قيس بن عبادة، فصادفه نائماً، فقالت الجارية: هو نائم. فما حاجتك إليه؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به.

قالت: حاجتك أهون من إيقاظه؛ هذا كيس به سبعمائة دينار والله يعلم أن ما في دار قيس غيره؛ خذه وأمض إلى معاطن الإبل[2] إلى أموال لنا بعلامتنا، فخذ راحلة من رواحله وعبداً وامض لشأنك، فقيل: إن قيساً لما استيقظ من نومه أخبرته الجارية بما صنعت فأعتقها.

ومضى صاحب عرابة الأوسى إليه، فألفاه[3] قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يمشي على عبدين، وقد كف بصره[4] فقال: يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به. فخلى العبدين وصفق بيمناه على يسراه وقال: أواه! أواه!؟ ما تركت لحقوق لعراه مالاً!! ولكن خذهما، يعني العبدين– قال: ما كنت بالذي أقص جناجيك قال: إن لم تأخذهما، فهما حران– فإن شئت تأخذ، وإن شئت تعتق، وأقبل يلتمس الحائط بيده، راجعاً إلى منزله– فأخذهما وجاء بهما فثبت أن الثلاثة هم أجواد عصرهم؛ إلا أنهم حكموا لعرابة، لأنهم أعطى غاية جهده.

---

[1] المطارف. ج مطرف، وهي ثياب من خزبها خطوط

[2] معاطن الإبل: مباركها.

[3] ألفاه: وجده.

[4] كف بصره: عمني.

أبو دلف[1]

جمع بين طرفي الكرم والشجاعة، ولي دمشق في خلافة المعتصم، فأما شجاعته فإنه لحق قوماً من الأكراد قطعوا الطريق، فطعن فارساً طعنة فنفذت الطعنة إلى فارس آخر رديفه[2]، فقتلتهما؛ فقال بكر بن النطاح:

قالوا وينظم فارسين بطعنة ... يوم الهياج ولا تراه كليلاً[3]

لا تعجبوا فلو أن طول قناته[4] ... ميل إذن نظم الفوارس ميلاً[5]

وأما شهرته بالكرم ففيه يقول العكوك:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره

فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره[6]

كل من في الأرض من عرب ... بين باديه إلى حضره

مستعير منك مكرمة ... يكتسيها يوم مفتخره

وقد أجازه[7] أبو دلف على هذه القصيدة بمائة ألف درهم، ولما بلغت المأمون غضب غضباً شديداً على العكوك، فطلبه فهرب، فاجتهدوا إلى أن جاءوا به مقيداً.

---

[1] هو أحد قواد المأمون، ثم المعتصم، وكان كريماً سخياً شجاعاً، ذا وقائع مشهورة، وحوادث مأثورة، وله علم ببعض العلوم توفي سنة ٢٢٥.

[2] الرديف: الراكب خلف الراكب.

[3] الكليل: الضعيف في قوته.

[4] القناة: الحربة.

[5] يعني: أن صف الفوارس لو كان طوله ميلاً لأصابهم بطعنة واحدة.

[6] يعني: إذا انقطعت حياة أبي دلف- ذهبت الدنيا وانتهى أمرها بعد وفاته.

[7] أجازه: أعطاه جائزة

فلما صار بين يديه قال له يا بن اللخناء[1] أنت القائل في مدحك لأبي دلف: كل من في الأوض من عرب- البيتين- جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ويفتخر بها، فقال: يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت لا يقاس بكم لأن الله تعالى اختصكم لنفسه على عباده وآتاكم الكتاب والحكم.

وإنما ذهبت في شعري لأقران وأشكال أبي دلف. فقال: والله ما أبقيت من أحد ولقد أدخلتنا في الكل وما استحل دمك بهذا ولكن بكفرك حيث قلت في عبد ذليل مهين:

أنت الذي تنزل الآيات منزلها	**وتنقل الدهر من حال إلى**
وما نظرت مدى طرف إلى أحد	**إلا قضيت بأرزاق وآجال**

ذاك هو الله يا كافر

فن الإنشاء

حدث عبد الرحيم بن علي البيساني الملقب بالقاضي الفاضل[2] كاتب الدولة الصلاحية[3] قال: كان من العادة أن كلاً من أرباب البيوت. إذا نشأ له ولده أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويسمع فأرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ العبيدي فدخلت ديوان المكاتبات وكان الذي

---

[1] اللخناء: ذات الرائحة الكريهة.

[2] هو أبو علي عبد الرحيم بن علي البيساني اللخمي، رئيس ديوان الإنشاء في آخر الدولة الفاطمية، وفي أيام صلاح الدين وابنه العزيز وكان معهما أشبه بالوزير.

وهو صاحب الطريقة الفاضلية في الإنشاء التي تشيع فيها التورية والجناس والطباق؛ توفي في سنة ٥٩٦هـ.

[3] الصلاحية: المنسوبة إلى صلاح الدين الأيوبي.

يرأسه في تلك الأيام هو صاحب الإنشاء بمصر- موفق الدين أبو الحجاج يوسف المعروف بابن الحلال. فلما مثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبي رحب بي.

ثم قال: ما الذي أعددت لفن الإنشاء وكتابته فقلت: ليس عندي سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة فقال: في هذا بلاغ[١] ثم أمرني بملازمته فلما ترددت إليه وتدربت عليه وطال تدريبي بين يديه أمرني أن أحل عليه[٢] ديوان الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره ثم أمرني أن أحله مرة أخرى فحللته.

شفير جهنم

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة فول القضاء أفقههما[٣] فجمع بينهما فقال له إياس: سل عني وعنه فقيهي المصر: الحسن وابن سيرين؛ وكان القاسم يأتيهما ففهم القاسم إن سألهما عنه- أشارا به فقال: لا تسأل عني ولا عنه. فو الله الذي لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم مني بالقضاء فإن كنت كاذباً فما عليك[٤] أن تولبني وأنا كاذب وإن كنت صادقاً فينبغي أن تقبل قولي فقال له إياس: إنك جئت برجل وقفت به على شفير جهنم فنجي نفسه منها بيمن كاذبة يستغفر الله تعالى منها

---

[١] في هذا بلاغ: أي فيه ما يكفي لبلوغ الغرض.

[٢] أحل عليه: حل الشعر نثره وشرحه.

[٣] شفير جهنم: حافتها العليا.

[٤] أفقههما: أحسنهما فهماً وفقهاً للشريعة. فما عليك: فما ينبغي لك.

وينجو مما يخاف فقال له عدي: أما إذا فهمتها فأنت للقضاء، فاستقصاه[1].

طرائف أدبية

- ١ -

كان المنصور قد وعد الهزلي بجائزة ونسي؛ فحجا معاً ومرا في المدينة النبوية ببيت عاتكة. فقال الهزلي: يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص:

يا بيت عاتكة التي أتغزل.

فأنكر عليه أمير المؤمنين المنصور ذلك؛ لأنه تكلم من غير أن يسأل فلما رجع الخليفة نظر في القصيدة إلى آخرها، ليعلم ما أراد الهذلي بإنشاد ذلك البيت من غير استدعاء، فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مذق اللسان[2] يقول مالا

فعلم المنصور أنه أشار إلى هذا البيت، فتذكر وعده، واعتذر إليه من النسيان.

- ٢ -

كان أبو العلاء المعري يتعصب لأبي الطيب المتنبي، فحضر يوماً

---

(١) استقضاه: ولاه القضاء.

(٢) مذق اللسان: حلو الكلام.

مجلس المرتضى، فجرى ذكر أبي الطيب، فهضم[1] المرتضى من جانبه فقال أبو العلاء: لو لم يكن لأبي الطيب من الشعر إلا قوله:

لك يا منازل في القلوب منازل– لكفاه، فغضب المرتضى وأمر به فسحب وأخرج؛ وبعد إخراجه قال المرتضى: هل تعلمون ماذا أراد بذكر البيت؟ قالوا: لا. قال: عني[2] به قول أبي الطيب في القصيدة:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص　　　فهي الشهادة لي بأني كامل

– ٣ –

كان السري الرفاء من مداح سيف الدولة، وجرى في مجلسه يوماً ذكر أبي الطيب، فبالغ سيف الدولة في الثناء عليه فقال له السري: اشتهي أن ينتخب الأمير لي قصيدة من غرر[3] قصائده لأعارضها، ويتحقق الأمير بذلك أنه أركب المتنبي في غير سرجه[4] فقال سيف الدولة على الفور عارض لنا قصيدته التي مطلعها:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما　　　وللحب ما لم يبق مني

قال السري: فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة، فلم أجدها من مختارات أبي الطيب؛ لكن رأيته يقول في آخرها:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق　　　أراه غباري ثم قال له: الحق

---

[1] هضم من جانبه: عابه وأنقص من مكانته ومنزلته.

[2] عنى به: أراد به.

[3] غرر القصائد: أجودها وأحسنها.

[4] أركب المتنبي في غير سرجه: رفع منزلته بدون استحقاق.

فقلت: والله ما أشار سيف الدولة إلا إلى هذا البيت

- ٤ -

يحكى أن رجلاً من طلبة العلم قعد على جسر بغداد يتنزه فأقبلت امرأة بارعة في الجمال من جهة الرصافة إلى الجانب الغربي فاستقبلها شاب فقال لها: رحم الله علي بن الجهم!

فقالت المرأة: رحم الله أبا العلاء المعري. وما وقفا بلى سارا كل في طريقه. فقال طالب العلم: فتبعت المرأة وقلت لها: والله إن لم تقولي ما أراد بابن الجهم فضحتك. قالت: أراد به قوله:

عيون المها[1] بين الرصافة   جلبن الهوى من حيث ندري

وعنيت أنا بأبي العلاء قوله:

فيا دارها بالخيف[2] إن مزارها   قريب ولكن دون ذلك

ذكاء المنصور

جلس المنصور الخليفة العباسي الثاني يوماً في أحد قباب المدينة؛ فرأى رجلاً ملهوفاً[3] يجول في الطرقات فأرسل إليه من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره أنه خرج في تجارة فأفاد فيها مالاً كثيراً وأنه رجع به إلى زوجته ودفع المال إليها؛ فذكرت المرأة أن المال سرق من المنزل، ولم

---

[1] المها: البقرة الوحشة: يشبه بها لاتساع عيونها.

[2] الخيف: اسم مكان يكون في سفح الجبل.

[3] ملهوفاً: متحسراً مكروباً.

ير نقباً ولا متسلقاً[١]. فقال له المنصور: منذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة قال: تزوجتها بكراً أم ثيباً؟ قال: ثيباً. قال: شابة أم مسنة؟ قال شابة. فدعا المنصور بقارورة[٢] طيب، وقال تطيب بهذا فإنه يذهب همك. فأخذها وانقلب إلى أهله.

فقال المنصور لجماعة من نقبائه[٣]: اقعدوا على أبواب المدينة فمن مر بكم وشممتم فيه روائح طيب فأتوني به.

ومضى الرجل بالطيب إلى بيته فدفعه إلى المرأة، وقال: هذا من طيب أمير المؤمنين. فلما شمته أعجبها إلى الغاية. فبعثت به إلى رجل كانت تحبه، وهو الذي دفعت المال إليه. فقالت له: تطيب بهذا الطيب فتطيب به ومر مجتازاً ببعض الأبواب. ففاحت منه روائح الطيب فأخذ وأتي به المنصور.

فقال له: من أين استفدت هذا الطيب؟ فتلجلج[٤] في كلامه. فسلمه إلى صاحب شرطته وقال له: إن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخذ منه وإلا فاضربه ألف سوط.

فما هو إلا أن جرد وهدد[٥]، حتى أذعن[٦] برد الدنانير، واحضرها كهيئتها. ثم أعلم المنصور بذلك.

---

[١] متسلقاً: مكان التسلق.

[٢] القارورة: الزجاجة.

[٣] نقبائه: ج نقيب، وهو كل رئيس لجماعة من الناس.

[٤] تلجلج: تعثر وتردد في الكلام.

[٥] جود: عرى من ثيابه ليجلد.

[٦] أذعن: أطاع ورضي.

فدعا صاحب الدنانير وقال له: أرأيتك إن رددت إليك الدنانير أتحكمني في امرأتك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ها هي دنانيرك وقد طلقت امرأتك وقص عليه الخبر.

ذكاء عضد الدولة[1]

قدم رحل إلى بغداد، ومعه عقد يساوي ألف دينار؛ فأراد بيعه فلم يتفق، فجاء إلى عطار موصوف بالخير والديانة، فأودع العقد عنده؛ ثم ذهب إلى الحج؛ فلما عاد أتى بهدية للعطار فلما سلم عليه أنكره وقال له: من أنت؟ ومن يعرفك؟

قال: أنا صاحب العقد؛ فلما كلمه رفسه وألقاه عن دكانه فاجتمع الناس وقالوا له: ويلك هذا رجل صالح فما وجدت من تكذب عليه إلا هذا؟! فتحير صاحب العقد؛ وتردد عليه فما زاده إلا شتماً وضرباً.

فقيل له: لو ذهبت إلى عضد الدولة لحصل لك من فراسته[2] خير؛ فكتب قصته وجعلها على قصبة وعرضها عليه فقال: ما شأنك؟ فقص عليه القصة. فقال له اذهب غداً واجلس في دكان العطار ثلاثة أيام حتى أمر عليك في اليوم الرابع، فأقف وأسلم عليك فلا ترد علي إلا السلام، فإذا انصرفت أعد عليه ذكر العقد، ثم أعلمني بما يقول لك، ففعل صاحب العقد ذلك.

---

[1] من أشهر ملوك بني بويه الذين ملكوا العراقين وملك بني حمدان، واستولوا على الخلفاء العباسيين حتى لم يبق لهم من الخلافة إلا اسمها، استوزر الصاحب بن عباد الأديب المشهور

[2] فراسته: من ذكاء عقله وصفاء قريحته وبار استنباطه للأمور.

فلما كان في اليوم الرابع جاء عضد الدولة في موكبه العظيم فلما رأى الرجل وقف وقال: سلام عليكم، فرد عليه السلام ولم يتحرك. فقال: يا أخي تقدم من العراق ولا تأتينا ولا تعرض علينا حوائجك؟. فقال له: لم يتيسر لي ذلك، ولم يزد على ذلك شيئاً، هذا والعسكر واقف بكماله فانذهل[1] العطار وأيقن الموت.

فلما انصرف عضد الدولة التفت العطار إلى الرجل وقال له: يا أخي متى أودعتني هذا العقد؟ وفي أي شيء هو ملفوف؟

فذكرني لعلي أتذكر، فقال: من صفته كيت وكيت. فقام وفتش ثم فتح جراباً وأخرج منه العقد. وقال: الله أعلم أني كنت ناسياً ولو لم تذكرني ما تذكرت، فأخذ الرجل العقد ومضى لي عضد الدولة فاعلمه؛ فعلقه في عنق العطار وصلبه على باب دكانه. ونودي: هذا جزاء من استودع ثم جحد، ثم أخذ الرجل عقده ومضى إلى بلاده.

ذكاء إياس القاضي

استودع رجل مالاً عند آخر. فلما طلبه منه أنكره وجحده فخاصمه إلى القاضي إياس، وقال المدعي: إني أطالبه بما أودعته إياه، وقدره كذا وكذا، فقال له إياس: ومن حضرك؟ قال: كان رب العزة حاضراً قال: فدفعته إليه في أي مكان؟ قال: في موضع كذا قال: فأي شيء تعهده من ذلك الموضع؟ قال: شجر عظيمة. قال:

فانطلق إلى الموضع وانظر إلى الشجرة، لعل الله يظهر لك علامة

[1] انذهل: دهش وذهل.

يتبين بها حقك، أو لعلك دفنت مالك تحت الشجرة فنسيت فتذكره إذا رأيت الشجرة. فمضى الرجل مسرعاً. فقال إياس للرجل المدعي عليه: اقعد حتى يرجع خصمك. فجلس وإياس يقضي بين الناس. ثم نظر إليه بعد ذلك وقال له: يا هذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكرها؟ قال: لا إنه لم يصل إليها بعد. فقال له: والله يا عدو الله إنك لخائن، فقال: أقلني[1]. أقالك الله!! ثم أمر أن يحتفظ به حتى يرجع الرجل؛ فلما رجع قال له إياس: قد أقر بحقك فخذه.

من نوادر أبي حنيفة في الذكاء والقضاء

- ١ -

إن الربيع صاحب المنصور كان يعادي أبا حنيفة؛ فحضر يوماً عند أمير المؤمنين فقال الربيع: يا أمير المؤمنين: إن أبا حنيفة يخالف جدك ابن عباس؛ وكان جدك يقول: إذا حلف الرجل على شيء، ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين- كان ذلك جائزاً، وأبو حنيفة لا يجوز ذلك إلا متصلاً باليمين.

فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين، إن الربيع يزعم أن ليس لك في رقاب جندك عهد ولا بيعة؛ قال: كيف ذلك؟ قال: يحلفون[2]. لك ثم يرجعون إلى منازلهم. فيستثنون فتبطل أيمانهم فضحك المنصور وقال: يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة.

---

[1] أقلني: سامحني، تجاوز عن ذنبي.

[2] يحلفون لك: أي بالولاء والطاعة.

- ٢ -

قال الإمام أبو حنيفة: دخلت البادية فاحتجت إلى الماء فجاءني أعرابي ومعه قربة ملآنة فأبى أن يبيعها إلا بخمسة دراهم، فدفعتها له ثم أخذت القربة فقلت: ما رأيك يا أعرابي في السويق؟[1]. فقال: هات؛ فأعطيته سويقاً ملتونا بزيت فجعل يأكل حتى امتلأ فقال: علي بشربة ماء فقلت: هي بخمسة دراهم. فأعطيته قدحاً من الماء واستردت الدراهم الخمسة وبقي الماء.

- ٣ -

استودع رجل بالكوفة رجلاً مالاً؛ ثم ذهب إلى الحج فلما رجع فجحده[2]. وجعل يحلف؛ فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة فخلا به وأخبره بذلك. فقال له الإمام: لا تكلم أحداً بجحوده.

وكان الرجل يجالس أبا حنيفة فقال له: إني قد استشرت في رجل يصلح للقضاء وقد اخترتك. فلما انصرف من عند الإمام جاء صاحب الوديعة فقال له: ارجع إلى صاحبك وذكره لاحتمال أن يكون ناسياً؛ فذهب إليه وسأله فأسرع ودفع إليه متاعه، وتوجه بعد ذلك إلى أبي حنيفة فقال له: إني نظرت في أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى إلى ما هو أنفس من هذا.

---

[1] السويق: الناعم من دقيق الحنطة والشعير.

[2] جحده: أنكره.

- ٤ -

جاء رجل إلى أبي حنيفة وقال له: يا إمام دفنت مالاً من مدة طويلة ونسيت الموضع الذي دفنته فيه فقال الإمام: ليس في هذا فقه فأحتال[١] لك؛ ولكن اذهب فصل الليلة إلى الغداة، فإنك ستذكره إن شاء الله تعالى. ففعل فلم يمض إلا أقل من ربع الليل حتى تذكر الموضع الذي دفن فيه المال. فجاء إلى أبي حنيفة فقال له أبو حنيفة: لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تصلى الليل كله، فهلا أتممت ليلتك كلها شكراً لله تعالى!

من ذكاء العرب

قيل: سار مضر وربيعة وإياد وأنمار أولاد نزار بن معد، إلى أرض نجران[٢]؛ فيما هم يسيرون إذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال: البعير الذي رعى هذا الكلأ أعور، فقال ربيعة: وهو أزور[٣]. فقال إياد: وهو أزعر[٤]؛ وقال أنمار: وهو شرود فلم يسيروا إلا قليلاً حتى لقيهم رجل على راحلة، فسألهم عن البعير فقال مضر: أهو أعور؟ قال: نعم. قال ربيعة: أهو أزور؟ قال: نعم. قال إياد: أهو أزعر؟ قال: نعم. قال أنمار: أهو شرود؟ قال: والله هذه صفات بعيري دلوني عليه. فحلفوا أنهم ما رأوه فلزمهم وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته؛ فساروا حتى قربوا

---

(١)

(٢) نجران: من بلاد اليمن.

(٣) أزور: أعوج الزور.

(٤) أزعر: مقطوع الذنب.

نجران. فنزلوا بالأفعى الجرهمي[1]. فنادى صاحب البعير: هؤلاء القوم وصفوا بعيري بصفته، ثم أنكروه.

فقال الجرهمي: كيف وصفتموه ولم تروه؟!

فقال مضر: رأيته يرعى جانباً ويترك جانباً؛ فعلمت أنه أعور. وقال ربيعة: رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر فعلمت أنه أفسدها بشدة وطئة لازوراه.

وقال إياد: عرفت بتره باجتماع بعره، ولو كان ذيالاً لتفرق.

وقال أنمار إنما عرفت أنه شرود؛ لأنه كان يرعى في المكان الملتف نبته، ثم يجوزه[2]. إلى مكان أرق منه وأخبث.

فقال الأفعى الجرهمي: إنهم ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه.

ثم سألهم: من هم؟ فأخبروه فرحب بهم وأضافهم وبالغ في إكرامهم.

معالجة الجن

كان عقبة الأزدي مشهوراً بمعالجة الجن، وصدق العزائم؛ فأتوه بجارية قد جنت في ليلة عرسها؛ فعزم عليها فإذا هي قد سقطت[3].

فقال لأهلها: اخلوني بها، فأجابوه فلما خلا بها قال لها: اصدقيني

---

[1] ذكر المسعودي في مزوج الذهب الذهب ج ٢ ص ٣٥- ٣٨ أن الأفعى الجرهمي كان ملكاً من ملوك العرب الأقدمين بنجران في اليمن.

[2] يجوزه: ينتقل عنه إلى غيره.

[3] سقطت: فقدت رشدها وصوابها.

عن نفسك وعلى خلاصك. فقالت له: إنه كان لي صديق وأنا في بيت أبي وأنهم أرادوا أن يدخلوني على زوجي، ولست ببكر فخفت الفضيحة فهل عندك حيلة في أمري؟

فقال: نعم. ثم خرج إلى أهلها فقال لهم: إن الجني قد أجابني إلى الخروج منها. فاختاروا من أي عضو يخرج؟ واعلموا أن العضو الذي يخرج منه الجني لابد أن يهلك ويفسد.

فإن خرج من عينها عميت، وإن خرج من أذنها صمت، وإن خرج من يدها شلت، وإن خرج من رجلها زمنت[1]، وإن خرج من فرجها ذهبت بكارتها. فقال أهلها: إنا لم نجد شيئاً أهون من ذهاب عذرتها[2]، فأخرج الشيطان منه.

فأوهمهم أنه فعل ذلك؛ وأدخلت المرأة على زوجها.

من براعة الأطباء

حكى أن جارية من جواري الرشيد تمطت، فلما أرادت أن تمد يدها لم تطق، وحصل فيها الورم، فصاحت وآلمها؛ فشق ذلك على الرشيد، وعجز الأطباء عن علاجها. فقال له طبيب حاذق: يا أمير المؤمنين لا دواء لها إلا أن يدخل عليها رجل أجنبي غريب فيخلو بها ويمرخها[3]، بدهن نعرفه. فأجابه الخليفة إلى ذلك رغبة في عافيتها. فأحضر الطبيب

---

[1] زمنت: صارت مقعدة.

[2] عذرتها: بكارتها.

[3] يمرخها: يدهنها.

الرجل والدهن.

وقال: أريد أن يأمر أمير المؤمنين بتعريتها حتى يمرخ الرجل جميع أعضائها بهذا الدهن، فشق ذلك على الخليفة وأمر أن يجاب إلى طلبه، وأضمر في نفسه قتل الرجل.

وقال للخادم[1]: خذه وأدخله عليها بعد أن تعريها، فعريت الجارية وأقيمت؛ فلما دخل عليها الرجل الغريب وقرب منها، وأومأ بيده إلى فرجها ليمسه غطت الجارية فرجها بيدها التي كانت قد عطلت حركتها. ولشدة ما داخلها من الحياء والفزع حمى جسمها بانتشار الحرارة الغريزية، فأعانها على ما أرادت من تغطية فرجها، واستعمال يدها فلما غطت فرجها قال لها الرجل: الحمد لله على العافية فأخذه لخادم وجاء به إلى الرشيد، وأعلمه بالحال وما اتفق.

فقال الرشيد للرجل: فكيف نعمل في رجل نظر إلى حرمنا؟!

فمد الطبيب يده إلى لحية الرجل فانتزعها فإذا هي ملصقة، وإذا الشخص جارية. وقال: يا أمير المؤمنين: ما كنت لأبدل[2]، حرمك للرجال، ولكني خشيت أن أكشف لك الحيلة فيتصل خبرها بالجارية فتبطل الحيلة ولا يفيد العلاج؛ لأني أردت أن أدخل على قلبها فزعاً شديداً ليحمي طبعها ويقودها إلى تحريك يدها، وتمشي الحرارة الغريزية إلى سائر أعضائها بهذه الواسطة؛ فسرى[3]، عن الرشيد ما كان وقر في

---

(1) الخادم: لابد أن يكون هذا الخادم خصياً.

(2) لأبذل حرمك: لأمتهن وأهين كرامتك.

(3) سرى عنه: زال ما به من الهم والكدر.

صدره من الرجل وأجزل عطية الطبيب.

بين ملك الفرس وملك الروم[1]

١- سابور يذهب إلى بلاد الروم متنكراً

لما عزم سابور بن هرمز على الدخول إلى بلاد الروم متنكراً؛ نهاه نصحاؤه، وعقلاء وزرائه، وحذروه من ذلك، فعصاهم.

وكان يقال: أوزر[2]، الناس وزراء الأحداث[3]، من الملوك؛ وعشاق الفتيات من المشايخ.

فإن سابور توجه إلى بلاد الروم، واستصحب وزيراً كان له ولأبيه من قبله. وكان من أدهى[4]، الناس في الحزم وسدداً الرأي[5]، مع معرفة تامة بالأديان واللغات. وكان من المتبحرين في العلوم والمبرزين بالمكائد.

فسلم إليه سابور جميع ما يحتاج إليه في سفره، وأمره ألا يتجاوز في السير ولا يبعد عنه؛ بحيث يراعي جميع أحواله في ليله ونهاره فتوجها نحو الشام؛ وليس ذلك الوزيرزي الرهبان، وتكلم بلسانهم

---

[1] (ملك الفرس) اخترت هذه القصة الطويلة؛ لأنها مؤلفة من عدة قصص مترابطة ومتشابكة. وقد أعجبني ما فيها من خيال بارع وعرض شيق واحتيال عجيب. ورأيت مؤلفها يسوقها مساق ألف ليلة وليلة في توزيع الحوادث على الليالي، ويقلد طريقة كلية ودمنة في إجراء الحديث بين الحوناث وإنطاقها بالحكمة.

وكنت أظن أن القصة كلها من وحي الخيال، وليس لها بذور من واقع التاريخ ولكني وجدت المسعودي يذكرها في مروج الذهب ج١، ٢١٨، ٢١٩، مع اختلاف في العبارة واختصار في الرواية.

[2] أوزر: أشد وزراً (ذنباً)

[3] الأحداث: صغار السن.

[4] أدهى: أكثر دهاء ومكراً واحتيالاً.

[5] سداد الرأي: حسنه وصوابه

وتحرف[1]، بصناعة الطب الجرائحي. وكان معه الدهن الصيني الذي إذا دهنت به الجراحات ختمت بسرعة واندملت.

فكان ذلك الوزير في مسيره نحو بلاد الروم يداوي الجراحات بأدوية يضيف إليها يسيراً من ذلك الدهن؛ فتبرأ بسرعة؛ وإذا عنى بأحد من ذوي الأقدار داواه من ذلك الدهن صرفاً[2]، فيبرأ على الفور، ولا يأخذ على ذلك أجراً. فانتشر ذكره في بلاد الروم وعقدت عليه الحناصر[3]، وأقبل عليه الناس؛ وكان مع انفراده مع سابور يراعي جميع أحواله.

فلم يزالا كذلك حتى طافا جميع الشام، وقصدا القسطنطينية فقدماها. فذهب الوزير إلى البطرك[4]، وتفسير هذا الاسم: أبو الآباء– فاستأذن له، وسأله عن قصده، فأخبره أنه هاجر إليه ليتشرف بخدمته ويدخل في أتباعه؛ ثم أهدى إليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك؛ فقربه وأكرمه وأحسن نزله وألحقه ببطانه[5]؛ واختبره فوجده عالماً بدينهم، بل مبرزاً فأعجب به غاية الإعجاب.

وجعل الوزير يتأمل أحوال البطرك ليصحبه بملا يلائمه، ويتفق عنده، فوجده مائلاً إلى الفكاهات، معجباً بنوادر الأخبار وكان الوزير في ذلك

---

[1] تحرف: اتخذ حرفة ومهنة.

[2] صرفاً: خالصاً.

[3] عقدت عليه الحناصر: اعتمد عليه.

[4] البطرك: رئيس رؤساء الأساقفة (المطارنة)

[5] بطانته: خاصته والمقربون إليه.

غاية في البراعة؛ فأخذ يتحفه بكل نادرة غريبة وملحة عجيبة؛ فصار البطرك لا يستطيع مفارقته؛ لأنه حلا لعينه وحل بقلبه.

وجعل الوزير مع ذلك يعالج الجراحات ولا يأخذ على ذلك أجراً فعظم قدره في الناس.

وكان مع كل ذلك يتعاهد أحوال سابور في كل وقت؛ إلى أن صنع قيصر وليمة وحضر الناس إليها على طبقاتهم، فأراد سابور حضورها ليطلع على أحوال قيصر وعلى رتبته في قصره وعظم وليمته فنهاه وزيره عن ذلك فعصاه، وتزيا بزي ظن أنه يستتر به ودخل دار قيصر مع من حضر وكان قيصر من شدة احتراسه من سابور وخيفته من أن يطرق[1] بلاده، وتحسن له همته العالية، وحدة الشبية ذلك- صور سابور في مجلسه وعلى ستور بيته وعلى فرشه وفي آلات أكله وشربه.

٢- سابور يقبض عليه

ولما دخل سابور يوم الوليمة واستقر في مجلسه، وأكل مع من حضر، أتوا بالشراب في كئوس البذور والذهب والفضة والزجاج المحكم، وكان في المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم؛ فلما وقعت عينه على سابور أنكره[2] وجعل يتأمل شخصه، فرأى عليه مخايل[3] الرياسة فزاد في تأمله، ووصل إليه دور الكأس فتأمل الصورة التي على

---

[1] يدخل بلاده خفية.

[2] شك في أمره.

[3] أمارات الرياسة وعلاماتها.

الكأس، وراجع النظر في سابور، فما شك أن الصورة التي على الكأس وضعت على مثاله وغلب على ظنه أنه سابور.

فأمسك الكأس في يده إمساكاً طويلاً؛ ثم قال رافعاً صوته: إن هذه الصورة التي على هذا الكأس تخبرني إخباراً عجيباً. فقيل له: وما الذي تخبرك؟ فقال: تخبرني أن الذي هي مثال له معنا في مجلسنا هذا؛ ثم نظر إلى سابور وقد تغير لونه حين سمع مقالته- فتحقق ظنه فبلغ ذاك قيصر فسأله عن نفسه، فتعلل[1] بضروب من العلل لم تقبل فقال ذاك المتفرس[2]: أيها الملك لا تقبل قوله، فإنه سابور لا محالة[3] فهدده قيصر بالقتل، فاعترف أنه سابور فحبسه قيصر مكرماً وأمر أن يعمل من جلود البقر صورة بقرة، وتطبق[4] عليها الجلود سبع طبقات، ويتخذ لها باب، وتجعل لها كوة[5] لأجل المبال ويستقر سابور بها، وتجمع يداه إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة يمكنه معها تناول ما يعمل له من طعام وشراب وغير ذلك.

فلما دخل سابور جوف تلك الصورة جمع قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد فارس. ووكل بسابور وهو داخل البقرة مائة رجل من ذوي البأس والشدة يحملونها. وصرف أمره[6] إلى المطران وهو خليفة البطرك

---

[1] تعلل أيدي عللاً وأسباباً.

[2] المتفرس: الذي يطيل النظر إلى الشيء ليتحقق منه ويختبره.

[3] لا محالة: لا شك.

[4] تطبق: تغطي بالجلود.

[5] الكوة: الطاقة في البيت أو الشيء.

[6] أي جعل المطران موكلاً بسابور.

فكانت تلك الصورة تحمل بين يديه.

فإذا نزل العسكر نزلت الصورة التي فيها سابور وسط العسكر وضربت عليها قبة، وتضرب للمطران قبة مجاورة لقبة سابور وقيصر. ولما أجد[١] قيصر السير إلى غزو بلاد فارس وتخريب بلادها– قال وزير سابور للبطرك: أيها الأب إنما استفدت بخدمتك الرغبة في مصالح الأعمال ولا عمل أصلح من تنفيس كرية عن مجهود وجر منفعة إلى مضطر؛ وقد علمت اجتهادي في مداوة الجرحى وإن نفسي تنازعني إلى صحبة الملك قيصر في سفره هذا؛ فلعل الله يستنقذ نفساً صالحة، أو يسوقني إلى مداوة جريح من العسكر، ليتقدس قلبي[٢] بهذه المثوبات؛ فكره البطرك ذلك وقال له: قد تعلم أنني لا أستطع فراقك، فكيف تطالبني بالسفر البعيد، فلم يزل وزير سابور يتضرع[٣] إلى البطرك إلى أن استحى منه وسمح له بذلك وزوده؛ وكتب معه إلى المطران يخبره برتبته عنده وأنه يحله في أعلى المراتب ويستضئ برأيه إذا أشكل عليه أمر.

٣-وزير سابور يحتال لإنقاذه

فقدم وزير سابور على المطران[٤] فعرف له حقه وأنزله في قبته، وجعل زمام أمره ونهيه بيده، وصار الوزير يستميله بما تميل إليه، ويطرفه

---

[١] أجد السير: أسرع فيه.

[٢] ليتقدس قلبي: ليتطهر.

[٣] يتضرع: يتخشع ويتوسل ويتذلل.

[٤] المطران: رئيس الأساقفة.

كل ليلة بطرف الأخبار، رافعاً بها صوته ليسع سابور حديثه، فيتسلى[1] بذلك ويدس في أحاديثه ما يريد أن يعلمه به ويبطنه من الأسرار. فكان سابور يجد في ذلك راحة عظيمة. وكان الوزير قد أعد لخلاص سابور أنواعاً من المكايد، رتبها عندما قدم على المطران؛ منها أنه امتنع عن مؤاكلة المطران، وأخبره أنه لا يخلط بطعام المطران غيره لأجل بركته؛ فكان إذا حضر طعام المطران أخرج هو الزاد الذي معه وانفرد بالأكل وحده؛ ولم يزل قيصر سائراً بجنوده حتى بلغ أرض فارس فأكثر فيها القتل والسبى وتغوير المياه[2] وقطع الأشجار، وخراب القرى والحصون؛ وهو مع ذلك يواصل السير ليستولى على دار ملك سابور؛ قبل أن يشعروا به[3] فيملكوا عليهم رجلاً منهم. ولم يكن للفرس هم إلا الفرار من بين يديه والاعتصام بالمعاقل والحصون. فلم يزل قيصر على تلك الحال حتى بلغ مدينة سابور وقرار ملكه، فأحاط بها ونصب عليها آلات الحصار؛ ولم يكن عندها قوة ولا منعة[4] في دفعه أكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها.

وكل ذلك فهمه سابور من كنايات[5] الوزير في محاضراته للمطران، ولكن لم يسمع له كلمة من حين سجنه قيصر في تلك الصورة؛ فلما علم

---

[1] يتسلى: يتعزى ويسلو.

[2] تغوير المياه: تخريب مصادرها من آبار ومجار وخزانات.

[3] به: أي بسابور، بأنه قد صار أسيراً عنده.

[4] المنعة: القوة والامتناع.

[5] كنايات الوزير: المراد بها الرموز والإشارات والأمثال التي يذكرها الوزير في محاضراته للمطران.

سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته وأشرف على فتح البلد، عيل صبره[1] وساء ظنه ويئس من الحياة. فلما جاءه الموكل بطعامه قال له: إن هذه الجامعة قد نالت[2] مني منالاً ضعفت قوتي عن احتماله، فإن كنتم تريدون بقاء نفسي فنفسوا[3] عني منها، واجعلوا بينها وبين يدي وعنقي خرقاً من الحرير؛ فجاء الموكل بطعامه إلى المطران وأعلمه بالذي قاله سابور، فسمعه الوزير، وعلم أن سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما أراد سابور.

فلما جن الليل[4]، وجلس الوزير لمسامرة المطران قال له: قد ذكرت الليلة حديثاً عجيباً ما ذكرته منذ كذا وكذا، وودت أني كنت حدثت به المطران البطرك قبل سفري. فقال له المطران: إني أرغب إليك أن تحدثني الليلة أيها الراهب الحكيم. فقال الوزير: حباً وكرامة ثم اندفع يحدثه رافعاً صوته ليسمع سابور ويفهم الغرض ويستأنس.

٤- قصة عين أهله وسيدة الناس

اعلم أيها المطران أنه كان ببلادنا فتى وفتاة ليس في زمانهما أحسن منهما، اسم الفتى عين أهله، واسم الفتاة سيدة الناس وكانا زوجين مؤتلفين، لا يبتغي أحدهما بالآخر بدلاً. ثم إن عين أهله جلس يوماً مع

[1] عيل صبره: ضعف وعجز.

[2] نالت منه: آلمته.

[3] نفسوا عني: أريحوني منها.

[4] جن الليل: أقبل بظلمته.

أصحابه، فتذاكروا النساء إلى أن ذكر أحدهم امرأة أطنب[١]، في وصفها وبالغ، وذكر أن اسمها سيدة الذهب، فوقع في قلب عين أهله حبها، فسأل الواصف عن منزلها، فذكر أنها ببلد بالقرب من بلده. ففكر عين أهله في أمرها وخامره حبها[٢]، فانطلق إلى البلد التي هي ساكنة بها، وسأل عن منزلها فعرفه. ولم يزل يتردد إلى بابها حتى رآها فرأى منظراً حسناً؛ ولكن لم تكن بأحسن من امرأته؛ بل ضرورات النفس حب التنقل في الأحوال.

ولازم عين أهله المعاودة إلى منزل سيدة الذهب حتى فطن له بعلها[٣]؛ وكان جافياً غليظ الطبع شديد البطش، يسمى الذئب فرصد عين أهله حتى مر به، فلما رآه وثب عليه وقتل فرسه ومزق ثيابه واستعان بجماعته عليه، فاحتملوه إلى داخل دار الذئب، وربطوه إلى سارية[٤] في الدار، ووكل به عجوزاً مقطوعة اليد جدعاء[٥]، عوراء شوهاء[٦]. فلما جن عليه الليل أوقدت تلك العجوز النار بالقرب منه، وجعلت تصطلي[٧]. فتذكر عين أهله ما كان فيه من السلامة والعافية والرفاهية والعز، فبكى بكاء شديداً فأقبلت عليه العجوز وقالت له: ما ذنبك الذي أوجب هذا؟

---

[١] أطنب: أطال القول وأسهب فيه.

[٢] خامره حبها: داخله وخالطه.

[٣] البعل: الزوج.

[٤] السارية: العمود من الخشب.

[٥] الجدعاء: المقطوعة اليد.

[٦] الشوهاء: القبيحة الوجه.

[٧] تصطلي: تستدفئ.

فقال عين أهله: ما علمت لي ذنباً. فقالت العجوز: هكذا قال الفرس للخنزير وكذب، فقال عين أهله للعجوز: وما الذي كذب فيه الفرس عند الخنزير؟

٥- قصة الفرس والخنزير

قالت العجوز: ذكروا أن فرساً كان لأحد الشجعان فكان يبالغ في إكرامه ويحسن إليه ويعده لمهماته، ولا يصبر عنه ساعة وكان يخرج به في صحبته كل يوم، فيزيل لجامه وسرجه ويطيل رسنه[١]، فينمرغ ويرعى في كل مرج مخصب حتى يرتفع النهار فيرده وهو على يده.

ثم إنه خرج يوماً إلى المرج راكباً ونزل عنه، فلما استقرت قدماه على الأرض نفر الفرس وجمح، ومر يعد وبسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه، وغاب عن عينه عند غروب الشمس. فرجع الفارس إلى أهله وقد يئس من الفرس، ولما انقطع الطلب من الفرس وأظلم عليه الليل جاع وطلب أن يرعى فمنعه اللجام، ورام أن يتمرغ فمنعه السرج، ورام أن يضطجع فمنعه الركاب؛ فبات شر مبيت فلما أصبح ذهب يبتغي فرجاً مما هو فيه فاعترضه نهر فدخله ليقطعه إلى جهته الأخرى. فإذا هو بعيد القعر، فسبح فيه وكان حزامه ولببه[٢]، لم يتقن دبغهما، فلما خرج أصابت الشمس الحزام واللبب، فيبسا واشتدا عليه فورم موضع اللبب والحزام، واشتد به الضرر وقوى به الجوع، ومضت عليه أيام فتزايد ضعفه

---

[١] الرسن: الحبل الذي يوضع في رأس الراية.

[٢] اللبب: ما يشد من سيور السرج في صدر الدابة ليمنع استئخار السرج.

وعجز عن المشي.

فمر به خنزير فهم[1]، بقتله فرآه ضعيفاً جداً، فسأله عن حاله، فأخبره بما هو فيه من إضرار اللجام واللبب والحزام، وسأله أن يصنع معه معروفاً ويخلصه مما هو فيه؛ فسأله الخنزير عن الذنب الذي أوقعه في تلك العقوبة؛ فزعم الفرس أن لا ذنب له. فقال له الخنزير: كذبت ولو صدقت خلصتك مما أنت فيه، ومن جهل ذنوبه وأصر عليها لم يرج فلاحه فصدقه الفرس وأخبره بجميع أمره، وكيف كان عند فارسه مكرماً وكيف فارقه، وما لقي في طريقه إلى حين اجتماعه به.

فقال الخنزير: قاتلك الله لقد كفرت النعم وأكثرت الذنوب؛ منها خلافك لفارسك الذي بالغ في الإحسان إليك وأعدك لمهماته، ومنها كفرك إحسانه، ومنها تعديك على ما ليس لك به علم وهو السرج واللجام، ومنها إساءتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذي لست من أهله، ولا لك عليه مقدرة، ومنها إصرارك على ذنبك، وكنت قادراً على العود إلى فارسك قبل أن يوهيك[2]، اللجام والجوع والحزام واللبب بالألم.

فقال الفرس للخنزير: قد عرفت ذنبي فانطلق عني ودعني فإني أستحق أضعاف ما أنا فيه. فقال الخنزير: بعد أن عرفت ذنبك وعدت إلى نفسك باللوم، واخترت لها العقوبة على جهلها- تعين الشروع في خلاصك.

---

[1] هم بالفعل: تقدم وعزم عليه.

[2] أوهاه: أضعفه.

ثم إن الخنزير قطع عذار اللجام[1]، فسقط الحزام، فنفس عن الفرس.

قال: فلما سمع عين أهله ما خاطبته به العجوز. قال لها: صدقت فيما نطقت، قد أدبتني فتأدبت، ثم أعلمها بخبره ورغبها في إن تمن عليه بالخلاص كما فعل الخنزير بالفرس. فقالت العجوز: الذي سألتني عنه لا يمكنني فعله الآن، ولعلى أجد لك فرجاً ومخرجاً عن قريب؛ فعليك بالصبر، وأمسكت العجوز عن مخاطبته فلما انتهى الوزير في حديثه إلى هذه الغاية أقبل على المطران وقال: إني أحس في أعضائي فتوراً[2]، وفي رأسي صداعاً، ولم أقدر الليلة على إتمام الحديث؛ ولعلى أكون الليلة القابلة نشيطاً إلى ذلك. ثم نهض إلى مضجعه.

٦- سابور يتنبه لأحاديث الوزير

فجعل سابور يتأمل حديث الوزير ويتأمل الأمثال التي ضربها ودسها في المسامرة، ففهم ان الوزير كني[3] عن سابور (بعين أهله) وكنى عن مملكته (بسيدة الناس) وكنى عن بلاد الروم (بسيدة الذهب) وكنى عن قيصر (بالذئب) الذي ذكر أنه زوج سيدة الذهب، وكنى عن طموح[4] نفس سابور إلى مملكة الروم بطموح عين أهله إلى رؤية سيدة الذهب، وكنى عن أخذ قيصر له بقبض الذئب على عين أهله، وكنى عن نفسه

[1] عذار اللجام: ما سال منه على خد الفرس.

[2] فتوراً: كسلاً وضعفاً.

[3] كنى: يكنو، ويكني، كناية، وهي ذكر الشيء ويراد غيره.

[4] الطموح: ارتفاع النظر إلى الشيء بقصد الحصول عليه.

وحاله وعجزه (العجوز القطعاء) وعرفه أنه لا يمكنه تخليصه في هذا الوقت كما قررت العجوز لعين أهله، وأنه شارع في خلاصه. فاستروح[1] سابور ريح الفرج، فسكنت نفسه ووثق بوزيره.

فلما كانت الليلة القابلة وتعشى المطران وأخذ مقعده للمسامرة قال الوزير: أيها الحكيم الراهب أخبرني ما كان من أمر عين أهله وهل خلصته العجوز من وثاق[2]، الذئب أم لا؟

فقال الوزير: سمعاً وطاعة، فشرع في حديثه وقال:

إن عين أهله أقام على حالته عدة أيام، وكل يوم يدخل عليه الذئب ويهدده بالقتل، ويزيده قيداً. ثم إن العجوز جاءته في بعض الليالي وأضرمت لها[3]، بالقرب منه ناراً، وجلست تصطلي[4]، ثم أقبلت على عين أهله وقالت له: ساعدني على خلاصك بالصبر، فقال لها: هان على الطليق[5]، ما لقي الأسير!! فقالت العجوز: حداثة[6] سنك قصرت فهمك عن إدراك الحقائق؛ أفتسمع حديثاً لك فيه سلوة قال: نعم، فقالت العجوز:

---

[1] استروح: أحس بالراحة واستبشر.

[2] الوثاق: القيد.

[3] أضرمت: أوقدت.

[4] تصطلي: تستدفئ.

[5] الطليق: الذي أطلق سراحه فلم يؤسر.

[6] الحداثة: صغر السن.

٧- قصة الصبي والغزال

ذكروا أن بعض التجار كان له ولد وكان مشغوفاً به، فأتحفه بعض معارفه بخشف[١]، غزال، فتعلق قلب الصبي بذلك الخشف الصغير؛ فكان لا يفارقه، وجعلوا في جيده[٢] حلياً نفيساً وربطوا له شاة ترضعه حتى اشتد ونجم قرناه[٣]، فأعجبه بريقهما وسوادهما.

وقال لأهله: ما هذا الذي ظهر في رأس الخشف؟ فقالوا له: إنهما سيكبران ويطولان. فقال الغلام لأبيه: إني أحب أن أرى غزالاً كبيراً، فاحضر له غزلاً قد استكمل قوة ونمواً. فأعجب الغلام وحلى جيده أيضاً. فتأنس الغزال الكبير بالخشف الصغير للمجانسة الطبيعية. فقال الخشف للغزال: ما كنت أظن أن لي في الأرض شكلاً قبل أن أراك. فقال له الغزال: إن أشكالك كثيرة. فقال الخشف: وأين هي؟ فأخبره الغزال بتوحشها[٤]، وانفرادها في فلوات الأرض وتناسلها؛ فارتاح الخشف لذلك وتمنى أن يراها. فقال له الغزال: أمنية لا خير لك فيها لأنك نشأت في رفاهية من العيش، ولو حصلت على ما تمنيت لندمت، فقال الخشف للغزال: لابد من اللحاق بأشكالي.

فلما رأى الغزال أن الخشف غير راجع عن بغيته– لم يجد بداً من

---

[١] الخشف: ولد الغزال.

[٢] الجيد: موضع القلادة من العنق.

[٣] نجم قرناه: ظهراً وبرزاً.

[٤] بتوحشها بمعيشتها مع الوحوش.

قضاء أربه[1]، لحرمه الألفة. فرصداً[2]، وقتاً ملائماً وخرجا معا حتى لحقا بالصحراء فلما عاينها الخشف فرح ومرح ومر يعدو لا يلتفت إلى ورائه فسقط في أخذ ود[3] ضيق قد قطعه السيل، فانتظر أن يأتيه الغزال فيخلصه، فلم يأته.

وأما ولد التاجر فإنه تنكد[4]، لفقدان الخشف والغزال وأشفق أبوه عليه، فاستدعى كل من يعاني[5]، الصيد، فعرفهم القصة، وكلفهم طلب الخشف والغزال ووعدهم بالمكافأة على ذلك، وركب التاجر معهم، وفرق اتباعه على أبواب المدينة، ينتظرون من يأتي من الصيادين، وانطلق هو وعبيده حتى دخلوا الصحراء، فرأوا على بعد رجلاً منكباً[6]، على شيء بين يديه فأسرعوا نحوه فرأوا صياداً قد أوثق غزالاً كبيراً وقد عزم على ذبحه، فتأمله التاجر فإذا هو الغزال الكبير الذي لولده فخلصه من الصياد، وأمر عبيده ففتشوه فوجدوا معه الحلي الذي كان على الغزال، فسأله: كيف ظفر به؟ وأين وجده؟ فقال: إني بت في هذه الصحراء ونصبت شركاً ومكثت قريباً منه؛فلما أصبحت مر على هذا الغزال ومعه خشف يعدو ويمرح في جهة غير الشرك، وجاء هذا الغزال يمشي حتى وقع في الشرك، فقنصته[7]، وقصدت به المدينة، فلما بلغت هذا

---

(1) الأرب: الحاجة والمقصد.

(2) رصداً وقتاً: اختاراً وقتاً معيناً.

(3) الأخدود: الشق المستطيل في الأرض.

(4) تنكد: تكدر وتألم.

(5) يعاني الصيد: يزاوله ويتخذه حرفة.

(6) انكب على الشيء: أقبل عليه باهتمام.

(7) قنصته: اصطدته.

الموضع ظهر لي أني مخطئ في إدخال هذا الظبي إلى المدينة حياً؛ لعلمي أنه إذا رئي حياً طولبت بما كان عليه من الحلي، فرأيت أن أذبحه وأدخل به لحما. فهذا خبري. فقال التاجر: لقد جنى عليك طمعك الخيبة، فماذا عليك لو أطلقته وحصلت على ما كان عليه من الحلي.؟

ثم إن التاجر أرسل الغزال إلى ولده مع أحد عبيده، وقال للصياد: ارجع معي فأرني الجهة التي رأيت الخشف سعى نحوها فرجع به إلى تلك الجهة. فسمع من قريب صوته فصاح به التاجر فعرف الخشف صوته، فصوت[1]، فسمع التاجر الصوت فأدركه فإذا هو في ذلك الأخدود ملقى. فأخذه ووهب التاجر للصياد ما رضي به وصرفه، ورجع التاجر بالخشف إلى ولده، فكملت مسرة الغلام. وجعل الخشف يتجنب الغزال الكبير إذا رآه، ولا يألفه فتنغصت مسرة الغلام لذلك وجهد أهله بكل حيلة أن يجمعوا بين الخشف والغزل فلم يقدروا على ذلك.

فبينما الخشف نائم في كناسه[2]. إذ دخل عليه الغزال، فأيقظه وعاتبه على نفاره[3]، منه. فقال الخشف: أما أنت الذي غدرت وقد علمت احتياجي في غربتي إلى معاونتك؟ فقال له: والله ما أخرني عن ذلك إلا وقوعي في شرك الصياد. وقص عليه القصة، فقبل عذره وعادا إلى الألفة كما كانا.

فلما سمع عين أهله خطاب العجوز وفهم كنايتها عن عجزها في

[1] صوت: صاح: أحدث صوتاً.

[2] كناسه: بيته

[3] نفاره: نفوره وتباعده.

تخليصه أمسك عن خطابها.

فلما انتهى وزير سابور من حديثه إلى هذا الحد سكت.

فقال له المطران: أيها الحكيم الراهب، ما هذا السكوت؟

فقال الوزير: قد عاودني ذلك الفتور الذي أجده في أعضائي.

فقال المطران: لا تفعل فإن ذلك يشق علي. فقال الوزير: نعم أفعل ذلك طلباً لمرضاتك، ثم اندفع يحدثه قال:

وبات عين أهله في تلك الليلة في أضيق الأحوال؛ ولما أصبح دخل عليه الذئب؛ فنال منه[١]، وهدده بالقتل وخرج من عنده فجعل يعلل[٢]، نفسه بقية نهاره ويمنها بالفرج. فلما أقبل عليه الليل استوحش[٣]، وانتظر أن تجلس إليه العجوز وتحادثه فلم تفعل، فأيقن بقتله في تلك الليلة، فأقبل على البكاء حتى مضى جانب من الليل ثم قال للعجوز: لم أحظ في هذه الليلة بمؤانستك؟ فقالت: لقد جرحت قلبي لقولك لي: هان على الطليق ما لقي الأسير! ولو اعتبرت باطن حالي لعلمت أن أسري أشد من أسرك، فاستمع أحدثك.

٨- العجوز تتابع حديثها

اعلم أيها الفتى أني كنت زوجة لبعض الفرسان وكان لي محباً فكنت

---

[١] نال منه: آذاه.

[٢] يعلل نفسه: يمنيها.

[٣] استوحش: أحس بالوحشة.

معه في أرغد عيش[1]، وولدت له أولاداً كثيرين، فغضب الملك على زوجي لأمر كان منه فقتله وقتل أولادي الذكور وباعني أنا وبناتي، فاشتراني هذا الفارس الذي عدا[2] عليك واحتملني إلى هذه البلدة، وأساء إلي وكلفني من العمل ما لا أطيق، ولي معه على هذه الحال سبع سنين؛ ثم قررت منه فظفر بي فقطع يدي وعاود عسفي ومضرتي.

وقد عزمت على تخليصك الليلة، وما أشك أنه سيقتلني وجل قصدي ذلك، لأجل الراحة مما أنا فيه، ولأجل ذلك أنا أكثر الدخول والخروج إليك وأنا في غاية الحيرة من الفزع والجزع.

ثم إنها فتحت قيود عين أهله وقطعت وثاقه، وتناولت سكيناً لتقتل نفسها. فقال لها عين أهبله: إن تركتك تقتلين نفسك فقد شاركتك في دمك، وانتزع السكين من يدها وقال لها: قومي اذهبي معي لكي ننجو معاً، أو نعطب[3]، معاً. فقالت: إن كبر سني وضعف بصري يمنعاني من اتباعك. فقال لها عين أهله: إن الليل متسع والموضع الذي أنا فيه قريب ولي قوة على حملك. فقالت له العجوز: أما إذ غرمت على هذا فأني لن أحوجك إلى حملي. وخرجا معا، فلم ينقض الليل حتى يلغا حيث أمنا. فجزاها عين أهله خيراً على ما صنعت واتخذها أماً. فهذا ما بلغني من ذلك. فقال المطران: ما أعجب أحاديثك أيها الحكيم. ولقد وددت أني لا أفارقك أبداً ثم نهض كل واحد إلى مضجعه.

---

(1) أرغد عيش: في أطيب عيش وأوسعه.

(2) عدا: جار وظلم.

(3) نعطب: نهلك.

٩- سابور يفكر في حديث وزيره

وبات سابور يتصفح[١] حديث وزيره ويتأمل أمثاله، ففهم أن الخشف مثل لسابور، وأن الغزال الكبير مثل للوزير، وأن خروج الخشف مع الغزال إلى الصحراء ووقوع الخشف في الأخدود مثل لصحبة سابور وزيره حتى وقع سابور في حبس قيصر، وأن نفار الخشف عن الغزال مثل لسوء ظن سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه[٢]. وتحقق له أن الوزير قد عزم على خلاصه والخروج به إلى المدينة ليلاً، وأن المدينة قريبة منهما، وأنه يحمله إن عجز عن المشي؛ فأيقن سابور بالفرج، ولما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور فدخل الخيمة التي يطبخ بها الطعام للمطران وبها المركلون بقبة سابور نائمون ينتظرون الطعام فتحيل[٣] إلى أن ألقى في الطعام مرقداً[٤] قوى الفعل؛ ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير يأكل زاده على ما جرت به العادة:

١٠- الوزير يخلص سابور من الأسر

فلم تكن إلا ساعة حتى صرع القوم[٥]، فبادر الوزير إلى فتح باب البقرة واستخرج سيده، وأزال الجامعة عن عنقه ويديه، وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر، وقصد به المدينة، فانتهيا معاً إلى سورها فصرخ

---

[١] يتصفح: كأنه يقلب صحائفه من ذاكرته.

[٢] استنقذه: سعى في إنقاذه.

[٣] تحيل: احتال.

[٤] مرقداً: منوماً.

[٥] صرع القوم: فقدوا وعيهم.

بهم الموكلون، فتقدم الوزير إليهم، وأمرهم بخفض أصواتهم وأعلمهم بسلامة الملك، ثم عرفهم نفسه، فابتدروا لهما وأدخلوهما المدينة؛ فقويت نفوس أهلها.

وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح وأمرهم أن يأخذوا أهبتهم[١]؛ فإذا ضربت نواقيس النصارى الضرب الأول يخرجون من المدينة ويفترقون على عسكر الروم، فإذا ضربت النواقيس الضرب الثاني يحملون على القوم من كل جهة.

وقصد سابور أخبية قيصر، ولم يكن الروم متأهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم بعد أن سدوا أبوابهم عليهم. فما شعر الروم حتى دهمهم[٢] الفرس، وأخذ سابور قيصر أسيراً وغنم جميع ما في عسكره، واحتوى على جميع خزائنه، ولم ينج من جنوده إلا اليسير. ثم عاد سابور إلى مدينته ودار مملكته فقسم تلك الغنائم بين أهل عسكره، وأحسن إلى حفظة ملكه، وفوض جميع أموره إلى وزيره. ثم إنه أحضر قيصر فلاطفه وأكرمه وقال له: إني مبق عليك كما أبقيت علي، وغير مجاز لك على التضييق الذي صنعته معي؛ ولكن آخذك بإصلاح ما أفسدت من جميع ملكي فتبني ما هدمت، وتغرس جميع ما قلعت، وتطليق كل من عندك من أساري الفرس؛ فضمن له جميع ذلك، ووفى به؛ فلما تم لسابور ما أراد من ذلك كله أحسن إلى قيصر وأطلقه وجهزه إلى دار ملكه، واستمر قيصر على مهادنته والانقياد إلى طاعته.

---

[١] أهبتهم: استعدادهم.

[٢] دهمهم: فاجأهم.

(١) قصة إبراهيم بن المهدي مع المأمون

كان إبراهيم بن المهدي[1] قد ادعى الخلافة لنفسه بالري وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً.

وله أخباره كثيرة أحسنها ما رواه عن نفسه فقال:

لما دخل المأمون الري في طلبي وجعل لمن أتاه بي مائة ألف درهم خفت على نفسي وتخيرت في أمري، فخرجت من داري وقت الظهر، وكان يوماً صائفاً، وما أدري أين أتوجه؟ فوقفت في شارع غير نافذ وقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون!! إن عدت على أثري[2] يرتاب في أمري؛ فرأيت في صدر الشارع عبداً أسود قائماً على باب دار، فتقدمت إليه وقلت: هل عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار؟ فقال: نعم، وفتح الباب فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصر وبسط ووسائد جلود إلا أنها نظيفة؛ ثم أغلق الباب علي ومضى فتوهمته[3] قد سمع الجعالة[4] في وأنه خرج ليدل علي، فبقيت على مثل النار؛ فبينما أنا كذلك إذ أقبل ومعه حمال، عليه كل ما يحتاج إليه من خبز ولحم وقدور جديدة[5] وجرة نظيفة وكيزان جدد.

فحط عن الحمال، ثم التفت إلي وقال: جعلني الله فداك؛ أنا رجل

---

[1] إبراهيم بن المهدي- عم المأمون- وله معه حوادث وأخبار كثيرة منها هذا الخبر وكان شاعراً أديباً مجيداً للغناء.

[2] على أثرى: في الطريق الذي جئت منه، وعلى إثري: في الحال.

[3] توهمته: ظننته.

[4] الجعالة: المال الذي يعطى لمن أرشد عن شيء أو أخبر به.

[5] قدور: ج: قدر: إناء للطبخ.

حجام[1]، وأنا أعلم أنك تتقرف[2]، مني لما أتولاه من معيشين فشأنك بما لم تقع عليه يد، وكان بي حاجة إلى الطعام فطبخت لنفسي قدراً ما أذكر أني أكلت مثلها، فلما قضيت أربي من الطعام قال: هل لك في شراب فإنه يسلي الهم؟ فقلت: ما أكره ذلك، رغبة في مؤانسته، ثم أني بخمر معتقه، وقال لي: روق لنفسك منها ما تشاء، فروقت شراباً في غاية الجودة، وأحضر لي قدحاً جديداً وفاكهة وأبقالاً مختلفة في طسوت فخار جدد. ثم قال بعد ذلك: أتأذن لي جعلت فداءك أن أقعد ناحية وآتي بشرابه فأشربه سروراً بك؟

فقلت: افعل فشرب وشربت، ثم دخل إلى خزانة له فأخرج عنوداً مصفحاً، ثم قال: يا سيدي ليس من قدري أن أسالك في الغناء؛ ولكن قد وجبت على مروءتك حرمتي[3]، فإن رأيت أن تشرف عبدك فلك علو الرأي.

(٢) الحجام يغني

فقلت: ومن أين لك أني أحسن الغناء؟ فقال: يا سبحان الله مولانا أشهر من ذلك، أنت إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن دله عليه مائة ألف درهم.

فلما قال ذلك عظم في عيني، وثبتت مروءته عندي، فتناولت العود

---

[1] الحجام: الذي مهنته الحجامة، وهي أخذ الدم من المريض بواسطة المحجم بعد تفريغه من الهواء.

[2] تتقرف: لا تطيب نفسك.

[3] حرمتي: رعايتي والإحسان إلي.

وأصلحته، وغنيت، وقد مر بخاطري فراق أهلي وولدي:

وعسى الذي أهدى ليوسف أهله وأعزه في السجن وهو أسير

أن يستجيب لنا فيجمع والله رب العالمين قدير

فاستولى عليه الطرب المفرط، وطاب عيشه كثيراً ومن شدة طربه وسروره قال لي: يا سيدي أتأذن لي أن أغني ما سنح[٢] بخاطري وإن كنت من غير أهل هذه الصناعة؟

فقلت: هذا زيادة في أدبك ومروءتك.

فأخذ العود وغنى:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا

وذاك لأن النوم يغشى[٣] عيونهم سريعاً ولا يغشى لنا النوم أعينا

إذا مادنا الليل المضر بذي جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا

فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقي لكانوا في المضاجع

فو الله لقد أحسست بالبيت قد سار بي وذهب عني كل ما كان بي من الهلع وسألته أن يغني فغنى.

تعيرنا[٥] أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

---

(١) يجمع شملنا: ما تفرق وتبدد من أمرنا.

(٢) ما سنح بخاطري: ما حضر بفكري وعرض بخاطري.

(٣) يغشى عيونهم: يحل بها النوم.

(٤) بذي الهوى: بصاحب الحب والعشق.

(٥) تعيرنا: تعيبنا.

ومـا ضـرنا أنـا قليـل وجارنـا عزيـز وجـار الأكثـرين ذليـل

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة[1] إذا مـا رأتـه عـامر وسـلول[2]

يقـرب حـب المـوت أجالنـا لنـا وتكرهـه آجـالهم فتطـول

فداخلني من الطرب ما لا مزيد عليه- إلى أن عاجلني السكر فلم استيقظ إلا بعد المغرب؛ فعاودني فكري في نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه، فقمت وغسلت وجهي وأيقظته، وأخذت خريطة كانت صحبتي، فيها دنانير لها قيمة فرميت بها إليه، وقلت له: استودعك الله فإني ماض[3] من عندكن وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهماتك، ولك عندي المزيد أن أمنت من خوفي، فأعادها علي متكدراً وقال: يا سيدي إن الصعاليك[4] منا لا قدر لهم عندكم! أآخذ على ما وهبنيه الزمان من قربك وحلو لك عندي ثمنا؟ والله لئن راجعتني في ذلك لأقتلن نفسي!

فأعدت الخريطة إلى كمي وقد أثقلني حملها؛ فلما انتهيت إلى باب داره قال: يا سيدي إن هذا المكان أخفى لك من غيره وليس في مثونتك على ثقلة، فأقم عندي إلى أن يفرج الله عنك فرجعت، وسألته أن ينفق من تلك الخريطة فلم يفعل فأقمت عنده أياماً على تلك الحال في ألذ عيش.

---

[1] سبة: عاراً.

[2] عامر وسلول: قبيلتان.

[3] ماض: ذاهب.

[4] الصعاليك: ج صعلوك: الفقير الضعيف، وصعاليك العرب: لصوصهم.

ثم تدممت[1] من الإقامة في مئونته، وأحتشمت[2] من التثقيل عليه فتركته وقد مضى يجدد لنا حالاً.

(٣) امرأة خير من رجال

وقمت فتزينت بزي النساء بالخف والنقاب وخرجت فلما صرت في الطريق داخلني من الخوف أمر شديد وجئت لأعبر الجسر، فإذا أنا بموضع مرشوش بماء، فبصر بي جندي ممن كان يخدمني فعرفني فقال: هذه حاجة المأمون فتعلق بي؛ فمن حلاوة الروح دفعته هو وفرسه فرميتهما في ذلك الزلق، فصار عبرة؛ وتبادر الناس إليه، فاجتهدت في المشي حتى قطعت الجسر ودخلت شارعاً فوجدت باب دار وامرأة واقفة في دهليز[3] فقلت: يا سيدة النساء احقني[4] دمي فإني رجل خائف، فقالت: على الرحب، وأطلعتني إلى غرفة مفروشة وقدمت لي طعاماً وقالت: يهدأ روعك فما علم بك مخلوق.

وإذا بالباب يدق دقاً عنيفاً فخرجت وفتحت الباب؛ وإذا بصاحبي الذي دفعته على الجسر وهو مشدود الرأس ودمه يجري على ثيابه وليس معه فرس فقالت: يا هذا ماذا دهاك[5]؟ فقال: ظفرت بالغنى وانفلت[6] مني، ثم أخبرها بما وقع له، فجاءت بخرق وعصبته بها وفرشت له ونام

---

[1] تذممت: استحيت، وأنفت.

[2] احتشمت: تذممت وخجلت.

[3] الدهليز: المسلك الطويل الضيق بعد الباب إلى داخل الدار.

[4] أحقني دمي: صونيه واحفظيه.

[5] ماذا دهاك:؟ ماذا أصابك؟

[6] انفلت: فر وجرى.

عليلاً؛ وطلعت إلي وقالت: أظنك صاحب القصة فقلت: نعم. فقالت: لا بأس عليك ثم جددت لي الكرامة وأقمت عندها ثلاثاً. ثم قالت: إني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع عليك فينم[1] بك فانج بنفسك فسألتها المهلة إلى الليل ففعلت. فلما دخل الليل زي النساء وخرجت من عندها فأتيت إلى بيت مولاه[2] كانت لنا فلما رأتني بكت وتوجعت، وحمدت الله على سلامتي، وخرجت كأنها تريد السوق، للاهتمام بالضيافة فظننت خيراً؛ فما شعرت إلا بإبراهيم الموصلي بنفسه في خيله ورجله[3] والموالاة معه فسلمتني إليه، فرأيت الموت عياناً، وحملت بالزي الذي أنا فيه إلى المأمون.

(٤) الاعتذار

فجلس مجلساً عاماً، وأدخلني إليه فلما مثلت بين يديه[4] سلمت عليه بالخلافة. فقال: لا سلم الله عليك ولا حياك ولا رعاك فقلت له: على رسلك يا أمير المؤمنين، إن ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، وقد جعلك الله فوق كل عفو، كما جعل ذنبي فوق كل ذنب؛ فإن تأخذ فبحقك وإن تعف فبفضلك:

ذنبـــــي إليــــك عظـــــيم	وأنــــت أعظــــم منــــه
فخــــــذ بحقـــــــك أولاً	فاصـــفح بحلمـــك عنـــه

---

[1] ينم بك: يخبر عنك.

[2] المولاة: العبدة: الأمة.

[3] رجله: السائرين على أرجلهم.

[4] مثلت: وقفت منتصباً كالتمثال.

إن لـــم أكـــن فـــي فعـــالي ـــــــ مـــــن الكــــرام فكنــــه

فرفع إلى رأسه فبدرته وقلت:

أتيـــــت ذنبــــاً عظيمـــــاً ـــــــ وأنــــت للعفــــو أهــــل

فــــإن عفــــوت فمـــــن ـــــــ وإن جزيـــــت فعــــدل

فرق المأمون واستروحت روائح الرحمة من شمائله، ثم أقبل على ابنه العباس، وأخيه أبي إسحق، وجميع من حضر من خاصته فقال: ما ترون في أمره؟ فكل أشار بقتلي إلا أنهم اختلفوا في القتلة[1]: كيف تكون؟ فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما تقول يا أحمد؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن تقتله وجدنا مثلك قتل مثله وإن عفوت عنه لم نجد مثلك عفا عن مثله؛ فنكس[2] المأمون رأسه ينكث[3] في الأرض، وأنشد متمثلاً.

قـومي همـو قتلـوا أمـيم أخـي ـــــــ فـإذا رميـت يصـيبني سـهمي

وكشفت المقنعة عن رأسي وكبرت تكبيرة عظيمة، قلت: عفا والله عني أمير المؤمنين.

فقال المأمون: لا بأس عليك يا عم. فقلت: ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أتفوه بعذر، وعفوك أعظم من أن أنطق فيه بشكر، ولكني أقول:

---

(1) القتلة: هيئة القتل.

(2) نكس رأسه: خفضها وأمالها إلى أسفل.

(3) ينكت: يضرب الأرض بعصا في يده: كناية عن التفكر.

إن الـذي خلـق المكـارم حازهـا — في صلب آدم للإمام السابع

ملئت قلوب الناس منك مهابة — وتظل تكلؤهم بقلب خاشع

مـا إن عصـيتك والغـواة تمـدني — أسـبابها إلا بنيـة طـائع

وعفـوت عـن مـن لـم يكـن عـن — عفو ولم يشفع إليك بشافع

ورحمت أطفالاً كأفراخ القطا[1] — وحنـين والـدة بقلـب جـازع

(٥) المأمون يعفو عنه

فقال المأمون: لا تثريب عليك اليوم قد عفوت عنك ورددت عليك مالك وضياعك فقلت:

رددت مـالي ولـم تبخـل علـي بـه — وقبـل ردك مـالي قـد حقنـت

فلـو بـذلت دمـي أبغـى رضـاك بـه — والمال حتى أسل النعل من[3]

مـا كـان ذاك سـوى[4] عاريـة — لـو لـم تعرهـا كنـت لـم تلـم

فـإن جحـدتك[5] مـا أوليـت مـن — إنـي إلـى اللـؤم أولـى منـك

فقال المأمون:

إن من الكلام درراً وهذا منه، وخلع عليه وقال: يا عم إن أبا إسحاق والعباس أشارا بقتلك. فقلت: إنهما نصحا لك يا أمير المؤمنين؛ ولكن أتيت بما أنت أهله ودفعت ما خفت بما رجوت

---

[1] القطا: طائر في حجم الحمام.

[2] حقنت دمي: صنته ولم تقتلني.

[3] أسل النعل: أصير حافياً.

[4] العارية: ما يستعار.

[5] جحدتك: أنكرت وكفرت بما أوليت وأعطيت من كرم

فقال المأمون:

أنت أمت حقدي بحياة عذرك؛ وقد عفوت عنك ولم أجرعك مرارة امتنان الشافعين، ثم سجد المأمون طويلاً ورفع رأسه وقال: يا عم أتدري لم سجدت؟ قلت: شكراً لله تعالى الذي أظفرك بعد ودولتك. فقال: ما أردت هذا ولكن شكراً لله الذي ألهمني العفو عنك.

(٦) قصة الهرب

فحدثني الآن حديثك فشرحت له صورة أمري، وما جرى لي مع الحجام والجندي والمرأة والموالاة التي نمت علي[١]ن فأمر المأمون بإحضارها وهي في دارها تنتظر الجائزة، فقال لها:

ما حملك على ما فعلت مع سيدك؟ فقالت: الرغبة في المال فقال: هل لك ولد أو زوج؟ قالت: لا. فأمر بصربها مائتي سوط وخلد سجنها[٢] ثم قال: أحضروا الجندي وامرأته والحجام فأحضروا فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل. فقال: الرغبة في المال.

فقال المأمون: أنت يجب أن تكون حجاماً ووكل به من يلزمه الجلوس في دكان الحجام، ليتعلم الحجامة.

وأكرم زوجته وأدخلها إلى القصر وقال: هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات؛ ثم قال للحجام: لقد ظهر من مروءتك ما يوجب المبالغة في

---

[١] نمت: وشت وخبرت.

[٢] خلد سجنها: جعله دائماً ومؤيداً.

إكرامك. وسلم إليه دار الجندي بما فيها وخلع عليه وأنعم عليه برزقة[١] وزيادة ألف دينار في كل سنة ولم يزل في تلك النعمة إلى أن مات.

قصة جابر عثرات الكرام

-١-

كان في أيام سليمان بن عبد الملك رجل يقال له: خزيمة ابن بشر من بني أسد، مشهور بالمروءة والكرم والمواساة، وكانت نعمته وافرة، فلم يزل حتى على تلك الحال حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يواسهم ويتفضل عليهم فواسوه حيناً ثم ملوه؛ فلما لاح له تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال لها: يا بنت العم، قد رأيت من إخواني تغيراً وقد عزمت على لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت. ثم أغلق بابه عليه، وأقام يتقوت مما عنده حتى نفد[٢] وبقى حائراً في حاله. وكان عكرة الفياض والياً على الجزيرة فبينما هو في منزله وعنده جماعة من أهل البلد، إذ جرى ذكر خزيمة بن بشر. فقال عكرمة: ما حاله؟ فقالوا: صار في أسوأ الأحوال، وقد أغلق بابه ولزم بيته. فقال عكرمة الفياض– وما سمى الفياض إلا للإفراط في الكرم– فما وجد خزيمة بن بشر مواسياً[٣] ولا مكافئاً؟ فلما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها في كيس واحد، ثم أمر بإسراج دابته، وخرج سراً من أهله ومعه غلام واحد يحمل المال؛ ثم سار حتى وقف بباب خزيمة فأخذ الكيس من الغلام، ثم أبعده

---

[١] برزقة: بأرض يستغلها ويرزق منها.

[٢] نفد: فرغ وفني.

[٣] مواسياً: معيناً.

عنه وتقدم إلى الباب فطرقه بنفسه، فخرج خزيمة فقال له: أصلح بهذا شانك، فتناول خزيمة الكيس فوجده ثقيلاً فوضعه على الأرض، وقبض على لجام الدابة وقال: من أنت جعلت فداك؟[1] قال: ما جئت في هذا الوقت وأنا أريد أن تعرفني؛ قال خزيمة: فما أقبله[2] أو تخبرني من أنت؟ قال: أنا جابر عثرات الكرام. قال: زدني. قال: لا، ثم مضى

-٢-

ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته. فقال لها: أبشري فقد أتى الله بالفرج. فلو كان في هذا فلوس كانت كثيرة: قومي فأسرجي قالت: لا سبيل إلى السراج[3] فبات يلمس الكيس فيجد تحت يده خشونة الدنانير.

ورجع عكرمة إلى منزله فوجد امرأته قد افتقدته[4] وسألت عنه فأخبرت بركوبه منفرداً فارتابت[5] وشقت جيبها ولطمت خدها، فلما رجع ورآها على تلك الحال قال لها: ما دهاك[6] يابنة العم؟! قالت: سوء فعلك بابنة عمك؛ أمير الجزيرة يخرج بعد هدأة[7] من الليل منفرداً عن

---

(١) جعلت فداك: عبارة دعاء.

(٢) أو تخبرني: إلا أن تخبرني.

(٣) لا سبيل إلى السراج: لا أعرف طريقه من الظلمة، أو ليس عندنا زيت نوقد به السراج.

(٤) افتقدته: بحثت عنه وطلبته.

(٥) ارتابت: شكت.

(٦) ما دهاك؟ ما أصابك؟

(٧) بعد هدأة من الليل: بعد هدوء الليل وسكونه.

غلمانه في سر من أهله إلا إلى زوجة أو سرية[١]؟ فقال: لقد علم الله أني ما خرجت لواحدة منها! قالت: لابد أن تعلمني، قال: فاكتميه إذن. قالت: افعل فأخبرها بالقصة على وجهها، ثم قال: أتحبين أن أحلف لك؟ قالت: لا. قد سكن قلبي.

ثم أصبح خزيمة فصالح غرماءه[٢] وأصلح من حاله، ثم تجهز يريد سليمان بن عبد الملك؛ فلما وقف ببابه، دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهور المروءة، وكان الخليفة به عارفاً، فأذن له؛ فلما دخل عليه وسلم بالخلافة فقال له: يا خزيمة ما أبطأك عنا؟ قال: سوء الحال يا أمير المؤمنين. قال فما منعك من النهضة إلينا[٣]؟ قال: ضعفي، قال: فمن أنهضك؟ قال: لم أشعر يا أمير المؤمنين. بعد هدأة من الليل إلا ورجل يطرق بابي، وكان معه كيت وكيت، وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها. فقال: هل عرفته؟ قال: لا والله؛ لأنه كان متنكراً وما سمعت منه إلا أنه جابر عثرات الكرام. فتلهف[٤] سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال: لو عرفناه لأعناه على مروءته؛ ثم قال: علي بقناة بها فعقد[٥] لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى عمل عكرمة الفياض وأجزل[٦] عطاياه، وأمره بالتوجه إلى الجزيرة.

---

[١] السرية: الحظية: العشيقة.

[٢] الغرماء: أصحاب الديون عليه.

[٣] النهضة: النهوض والقدوم.

[٤] تلهف: تشوق.

[٥] فعقد له: ولاه على الجزيرة.

[٦] أجزل: أعطى الكثير.

-٣-

فخرج خزيمة متوجهاً إليها، فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلدة للقائه فسلم عليه ثم سارا جميعاً إلى أن دخل البلد، فنزل خزيمة في دار الإمارة، وأمر أن يؤخذ عكرمة وأن يحاسب فحوسب، ففضل عليه مال كثير؛ فطالبه خزيمة بالمال فقال: مالي إلى شيء منه سبيل، فأمر بحبسه، ثم بعث يطالبه فأرسل إليه: إني لست ممن يصون ماله بعرضه[١]، فاصنع ما شئت، فأمر به فكبل[٢] بالحديد وضيق عليه وأقام على ذلك شهراً.

فأضناه[٣]، ثقل الحديد وأضر به، وبلغ ذلك ابنة عمه فجزعت عليه واغتمت، ثم دعت مولاة لها ذات عقل وقالت: امضي الساعة إلى باب هذا الأمير فقولي: عندي نصيحة؛ فإذا طلبت منك فقولي: لا أقولها إلا للأمير خزيمة؛ فإذا دخلت عليه سليه الخلوة، فإذا فعل قولي له: ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك في مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد؟!

فلما سمع خزيمة قولها قال: واسوءتاه[٤]، جابر عثرات الكرام غريمي!!

قالت: نعم. فأمر من وقته بدابته فأسرجت وركب إلى وجوه أهل

---

[١] أي لو كان عندي مال ما رضيت الحبس والهوان.

[٢] كبل: قيد.

[٣] أضناه: آلمه وأمرضه.

[٤] واسوءتاه: وافضيحتاه. السوءة: الخلة القبيحة، الفاحشة والعورة.

البلد فجمعهم، وسار بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل فرأى عكرمة الفياض في قاع الحبس متغيراً قد أضناه الضر. فلما نظر عكرمة إلى خزيمة، وإلى الناس أحشمه[1]، ذلك فنكس رأسه، فأقبل خزيمة على رأسه فقبله، فرفع رأسه إليه وقال: ما أوجب هذا منك؟

قال: كريم فعلك وسوء مكافأتي، يغفر الله لنا ولك.

-٤-

ثم أمر بفك قيوده وأن توضع في رجليه. فقال عكرمة: تريد ماذا؟

قال: أريد أن ينالني[2]، من الضر مثل ما نالك؛ فقال: أقسم عليك بالله ألا تفعل فخرجا جميعاً إلى أن وصلا إلى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الانصراف فلم يمكنه من ذلك؛ قال: وما تريد؟ قال: أغير من حالك؛ وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك؛ ثم أمر بالحمام فأدخل، فلما خرج خلع عليه وحمل إليه مال كثير، ثم سار معه إلى داره واستأذنه في الاعتذار إلى ابنة عمه، فأذن له فاعتذر إليها، ثم سأله أن يسير معه إلى أمير المؤمنين، وهو يومئذ مقيم بالرملة[3].

فأنعم[4]، له بذلك. فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بن عبد الملك فدخل الحاجب فأخبره بقدوم خزيمة بن بشر؛ فراعه[5] ذلك

---

[1] أحشمه: أخجله.

[2] ينالني: يصيبني.

[3] الرملة: بلد بالشام.

[4] أنعم له: قال له: نعم.

[5] راعة: أفزعه وأخافه.

وقال: إلى الجزيرة يقدم علينا بغير أمرنا، مع قرب العهد به؟ ما هذا إلا لحادث عظيم؛ فلما دخل عليه قال له قبل أن يسلم: ما وراءك يا خزيمة؟ قال: خير يا أمير المؤمنين. قال: فما أقدمك؟ قال: ظفرت بجابر عثرات الكرام، فأحببت أن أسرك به لما رأيت من شوقك إلى رؤيته، قال: ومن هو؟ قال: عكرمة الفياض؛ فأذن له في الدخول فدخل فسلم عليه بالخلاقة فرحب به وأدناه من مجلسه وقال: يا عكرمة لقد كان خيرك له وبالاً[1] عليك، ثم قال له: اكتب حوائجك وما تختاره في رقعة[2]، فكتبها وقضيت على الفور، ثم أمر له بعشرة آلاف دينار، مع ما أضيف إليها من التحف والطرف؛ ثم دعا بقناة وعقد له[3]، على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وقال له: أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته، قال: بل أرده إلى عمله يا أمير المؤمنين؛ ثم انصرفا جميعاً ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته.

قصة الخيزران مع زوجة مروان بن محمد[4]

-١-

حكت زينب بنت سليمان بن عبد الله بن عباس فقالت:

---

[1] وبالاً: شراً.

[2] الرقعة: ورقة يكتب فيها الإنسان طلباته أو أوامره.

[3] عقد له: جعله والياً.

[4] زوجة مروان: في طبعات الكتاب (بنت مروان) وعن هذه الطبعات أخذ مؤلفو كتب المطالعة للمدارس الثانوية هذه القصة كما هي، وتكرر طبع الكتاب عشرات المرات مع بقاء هذا الخطأ التاريخي؛ مع أن سياق القصة يقطع بأنها زوجة مروان لا ابنته؛ ولقد رجعت لكتب التاريخ أيام تدريسي لهذه القصة فوجدت المسعودي في مروج الذهب يذكر أنها (امرأة مروان) ج ٣ ص ٢٣٧.

كنت أمس عند الخيزران، ومن عادتي أن أجلس بإزائها، وفي الصدر مجلس للمهدي يجلس فيه؛ وهو يقصدنا في كل وقت فيجلس قليلاً ثم ينهض.

فبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا جارية من جواريها فقالت: أعز الله السيدة، بالباب امرأة ذات جمال وخلقة حسنة، وليس وراء ما هي عليه من سوء الحال غاية، تستأذن عليك؛ وقد سألتها عن اسمها فامتنعت أن تخبرني. فالتفتت إلى الخيزران وقالت: ما ترين؟ فقلت أدخليها، فإنه لا بد من فائدة أو ثواب.

فدخلت امرأة من أجمل النساء لا تتوارى بشيء فوقفت بجنب عضادة الباب؛ ثم سلمت متضائلة؛ ثم قالت أنا مزنة زوجة مروان ابن محمد الأموي. فقالت الخيزران: لا حياك الله ولا قربك. فالحمد لله الذي أزال نعمتك، وهتك سترك[1] وأذلك. أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك عجائز أهل بيتي يسألنك أن تكلمي صباحك[2] في الإذن في دفن إبراهيم بن محمد فوثبت عليهن، وأسمعتهن مالا سمعن قبل، وأمرت فأخرجن على تلك الحال.

فضحكت مزنة، فما أنسى حسن ثغرها وعلو صوتها بالقهقهة، ثم قالت:

يا بنت العم أي شيء أعجبك من حسن صنيع الله بي على

---

[1] هتك سترك: أذلك وأزال حرمتك وكشف خدرك.

[2] صاحبك: هذه الكلمة هي التي تعين سياق القصة، وأن صاحبتها زوجة مروان لا بنته.

العقوق[1] حتى أردت أن تتأسى بي فيه؛ والله إني فعلت بنسائك ما فعلت فأسلمني الله إليك ذليلة جائعة عريانه؛ وكان ذلك مقدار شكرك لله تعالى على ما أولاك بي!!

ثم قالت: السلام عليكم ثم ولت مسرعة؛ فصاحت بها الخيزران فرجعت. قالت زينب: فنهضت إليها الخيزران لتعانقها فقالت: ليس في لذلك موضع مع الحال التي أنا عليها. فقالت الخيزران لها: فالحمام إذن وأمرت جماعة من جواريها بالدخول معها إلى الحمام فدخلت

-٢-

الخيزران تكرم زوجة مروان

فلما خرجت من الحمام وافتها الخلع والطيب؛ فأخذت من الثياب ما أرادت ثم تطيبت ثم خرجت إلينا فعانقتها الخيزران وأجلستها في الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي ثم قالت لها الخيزران: هل لك في الطعام. فقالت: والله ما فيكن أحوج مني إليه فعجلوه؛ فأتى بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة[2]، إلى أن اكتفت، ثم غسلنا أيدينا، فقالت لها الخيزران:

من وراءك ممن تعنين به؟[3] قالت: ما خارج هذه الدار من بيني وبينه نسب[4] فقالت: إذا كان الأمر كذلك فقومي حتى تختاري لنفسك

---

[1] العقوق: ضد الشفقة والرحمة للأقارب.

[2] محتشمة: خجلة مستنكفه.

[3] تعنين: تهتمين.

[4] العبارة كلها كناية عن موت أقاربها أو انقطاع أخبارهم.

مقصورة من مقاصيرنا وتحولي لها جميع تحتاجين إليه؛ ثم لا نفترق إلى الموت!!

فقامت ودارت بها في المقاصير؛ فاختارت أوسعها وأنزهها، ولم تبرح حتى حولت إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكسوة. فقالت زينب: ثم تركناها وخرجنا عنها. فقالت الخيزران: إن هذه المرأة قد كانت فيما كانت فيه، وقد مسها[1] الضر، وليس يغسل ما في قلبها إلا المال. فاحملوا لها خمسمائة ألف درهم، فحملت إليها.

-٣-

المهدي يسأل عن زوجة مروان

وفي أثناء ذلك وافى[2] المهدي فسألنا عن الخبر، فحدثته الخيزران حديثها وما لقيتها به، فوثب مغضباً. وقال للخيزران:

إن هذا مقدار شكر الله على أنعمه، وقد أمكنك من هذه المرأة مع الحالة التي هي عليها؛ فو الله لولا محلك بقلبي لحلفت ألا أكلمك أبداً..

فقالت الخيزوان: يا أمير المؤمنين، قد اعتذرت إليها ورضيت وفعلت معها كذا وكذا. فلما علم المهدي ذلك قال لخادم كان معه احمل إليها مائة بدرة[3] وادخل إليها وأبلغها مني السلام، وقل لها: والله

---

(١) مسها: أصابها.

(٢) وافي: حضر.

(٣) البدرة: كيس به عشرة آلاف درهم.

ما سررت في عمري كسروري اليوم، وقد وجب على أمير المؤمنين إكرامك، ولولا احتشامك[1] لحضر إليك مسلماً عليك، وقاضياً لحقك. فمضى الخادم بالمال والرسالة. فأقبلت على الفور فسلمت على المهدي بالخلافة وشكرت صنيعه، وبالغت في الثناء على الخيزران عنده وقالت: ما على أمير المؤمنين حشمة، أنا في عدد حرمه[2] ثم قامت إلى منزلها، وصارت بعد ذلك تتصرف في القصر والجواري كتصرف الخيزران.

طفيلي وزنادقة[3]

أمر المأمون أن يحمل إليه عشرة من أهل البصرة كانوا قد رموا[4] بالزندقة فحملوا إليه فرآهم طفيلي قد اجتمعوا بالساحل فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة، فدخل معهم ومضى بهم الموكلون إلى البحر وأركبوهم في زورق قد أعد لهم، فقال الطفيلي: لا شك أنها نزهة فصعد معهم في الزورق، فلم يكن بأسرع من أن قيدوا وقيد الطفيلي معهم. فعلم أنه قد وقع ورام الخلاص[5] فلم يقدر وسار بهم الزورق إلى أن دخلوا بغداد وحملوا حتى دخلوا على المأمون فلما مثلوا بين يديه أمر بضرب أعناقهم.

---

[1] احتشامك: حياؤك مني وخجلك.

[2] الحرم: ما يحميه الرجل ويدافع عنه، ما في حمايته.

[3] الزندقة: كلمة فارسية أطلقت على الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ويتحدثون به فيما بينهم.

[4] رموا: اتهموا.

[5] رام الخلاص: أراد الخلاص.

فاستدعوهم بأسمائهم حتى لم يبق إلا الطفيلي وهو خارج عن العدة[1] فقال المأمون: من هذا؟ قالوا: والله ما ندري يا أمير المؤمنين غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به فقال المأمون: ما قصتك يا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين امرأتي طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئاً، ولا أعرف غير لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم!!.

وإنما رأيتهم مجتمعين فظننت أنهم مدعوون إلى وليمة فالتحقت بهم فضحك المأمون، ثم قال: بلغ من شؤم التطفل أن أحل صاحبه هذا المحل، لقد سلم هذا الجاهل من الموت، ولكن يحب أن يؤدب حتى يتوب

من غرائب التطفل

حكى إبراهيم بن المهدي[2] حديثاً عجيباً عن التطفل للمأمون فقال: خرجت يوماً متنكراً للتنزه، فانتهى بي المشي إلى موضع شممت منه روائح طعام وأبازير[3] قد فاحت، فتاقت[4] نفسي إليها لا أقدر على المضي؛ فرفعت بصري، فإذا بشباك ومن خلفه كف ومعصم[5] ما رأيت أحسن منهما فوقفت حائراً، ونسيت روائح الطعام بذلك الكف والمعصم؛ فأخذت في إعمال الحيلة، فإذا خياط قريب من ذلك

---

[1] العدة: العدد المطلوب.

[2] كانت له اليد الطولى في الغناء والضرب بالملاهي وحسن المنادمة، وكان أسود اللون لأن أمه كانت جارية ثم صار خليفة إلى أن قبض عليه المأمون وعفا عنه.

[3] الأبازير: ج أبزار، وهي التوابل التي تضاف للطعام.

[4] تاقت: أحبت واشتاقت.

[5] المعصم: موضع السوار من الساعد.

الموضع؛ فتقدمت إليه وسلمت عليه فرد علي السلام. فقلت: لمن هذه الدار؟ قال: لرجل من التجار، قلت: ما اسمه؟ قال: فلان بن فلان. فقلت: أهو ممن يشرب الخمر؟ قال: نعم وأحسب اليوم أن عنده دعوة وليس ينادم إلا التجار. فبينما نحن في الكلام إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان فأعلمني أنهما أخص الناس بصحبته وأعلمتني باسميهما؛ فحركت دابتي فلقيتهما وقلت: جعلت فداء كما قد استبطأ كما أبو فلان؛ وسايرتهما حتى أتيا الباب فدخلت ودخلا؛ فلما رآني صاحب الدار معهما لم يشك أني معهما، فرحب بي وأجلسني في أفضل المواضع، ثم جيء بالمائدة فقلت في نفسي: هذه الألوان قد من الله علي ببلوغ الغرض منها، بقي الكف والمعصم. ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة[1] فرأيت مجلساً محفوفاً باللطائف؛ وجعل صاحب المجلس يتلطف بي ويقبل علي في الحديث لظنه أني ضيف لأضيافه، وهم على مثل ذلك، حتى شربنا أقداحاً، إذ خرجت علينا جارية كأنها غصن بان، في غاية الظرف وحسن الهيئة، فسلمت غير خجلة؛ وأتى بعود فأخذته وجسته فإذا هي حاذقة[2] واندفعت تقول:

ألـــيس عجيبـــاً أن يضـــمني[3]	وإيـاك لا نخلـو ولا نـتكلم؟
سـوى أعـين تبـدى سـرائر أنفـس	وتقطيـع أنفـاس علـى النـار

---

[1] مجلس المنادمة: مجلس الشراب والأنس بالحديث والغناء.

[2] حاذقة: ماهرة

[3] يجمعني معك.

إشـارة[1] أفـواه وغمـز حواجـب وتكسـير أجفـان وكـف يسـلم

فهيجت يا أمير المؤمنين– بلا بلى[2] فطربت لحذقها وحسن شعرها الذي غنت به؛ فحسدتها وقلت: قد بقى عليك يا جارية شيء فرمت العود وقالت: متى كنتم تحضرون البغضاء في مجالسكم؟ فندمت على ما كان مني ورأيت القوم قد أنكروا[3] على ذلك. فقلت في نفسي: فأتني جميع ما أملت؛ ثم قلت: أثم عود[4]؟ قالوا: نعم. فأصلحت ما أردت فيه ثم اندفعت فغنيت:

هــذا محبــك مطــوي علــى صــب مدامعــه تجـري علــى

لـه يـد تسـأل الـرحمن راحتـه مما به ويد أخرى على كبده[7]

يـا مـن رأى كلفـا[8] مسـتعبداً كانت منيته في عينه ويده[10]

فوثبت الجارية فأكبت على رجلي تقبلها وقالت: المعذرة إليك يا سيدي، والله ما علمت بمكانك، ولا سمعت بمثل هذه الصناعة. ثم أخذ القوم في إكرامي وتبجيلي، بعد ما طربوا غاية الطرب، وسألني كل منهم

---

[1] كل ما بيننا: إشارة أفواه وغمز حواجب إلخ..

[2] البلابل: جمع بلبل، وهو طائر مشهور بحسن الصوت والمعنى: طربت أيما طرب.

[3] أنكروا: استقبحوا.

[4] أثم عود: أهنا عود.

[5] الكمد: شدة الغم.

[6] مدامعه كثيرة الانصباب والجريان.

[7] يد مرفوعة بالدعاء إلى الله أن يريحه مما هو فيه، والثانية موضوعة على كبده لتخفف آلامها

[8] الكلف: العاشق.

[9] الدنف: من لازمه المرض من الحب أو غيره.

[10] سبب هلاكه عينه التي نظرت ويده التي سلمت فنقلت العين صورة المحبوب ونقلت اليد جاذبيته إليه.

الغناء فغنيت لهم نوبات[1] مطربة. فغلب على القوم السكر وغابت عقولهم، فحملوا إلى منازلهم، وبقي صاحب المنزل فشرب معي أقداحاً. ثم قال: يا سيدي ذهب ما مضى من عمري مجاناً، إذ لم أعرف مثلك؛ فبالله يا مولاي، من أنت؟ لأعرف نديمي الذي من الله علي به في هذه الليلة.

فأخذت أداري[2] وهو يقسم علي، فأعلمته فوثب قائماً وقال: قد عجبت أن يكون هذا الفضل إلا لمثلك. ولقد أسدى[3] إلى الزمان يداً لا أقوم بشكرها. ومتى طمعت أن تزورني الخلافة في منزلي؟ وتناد متى ليلتي؟ وما هذا إلا في المنام.!! فأقسمت عليه أن يجلس فجلس. وأخذ يسألني عن السبب في حضوري عنده بألطف معنى، فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها وما سترت منها شيئاً؛ ثم قلت: أما الطعام فقد نلت منه بغيتي، فقال: والكف والمعصم إن شاء الله. ثم قال: يا فلانة قولي لفلانة تنزل، ثم جعل يستدعى واحدة بعد واحدة، يعرضها علي وأنا لا أرى صاحبتي إلى أن قال: والله ما بقي إلا أمي وأختي، والله لتنزلان!!

فعجبت من كرمه وسعة صدره. فقلت: جعلت فداك، تبدأ بالأخت قال: حباً وكرامة، ثم نزلت أخته، فأراني يدها فإذا هي التي رأيتها فقلت: هذه الحاجة[4]. فأمر غلمانه لوقته فأحضروا الشهود وأحضر بدرتين.

---

[1] نوبات: مرات: أغنيات.

[2] أداري: أتهرب من إخباره بأمري.

[3] أسدى: أعطى ومنح.

[4] أي هذه هي حاجتي وطلبي.

فلما حضر الشهود قال لهم: هذا سيدي إبراهيم ابن المهدي يخطب أختي فلانة، وأشهدكم أني قد زوجتها له وأمهرتها منه عشرين ألف درهم. فقلت: قبلت ورضيت، فشهدوا علينا، فدفع بدرة إلى أخته، وفرق الثانية على الشهود.

ثم قال: يا سيدي أمهد[١] لك بعض البيوت فتنام مع أهلك، فاحشمني[٢] ما رأيت من كرمه؛ وتذممت أن أخلو بها في داره، ثم قلت: بل أحضر عمارتي[٣] وأحملها إلى منزلي. فو حقك يا أمير المؤمنين، لقد حمل إلي من الجهاز ما ضاقت عنه بيوتنا على سعتها وأولدتها هذا الغلام القائم بين يدي أمير المؤمنين. فعجب المأمون من كرم هذا الرجل، وقال: لله دره[٤] ما سمعت قط بمثل هذه القصة

أكرم من ولدته العرب

قال الأصمعي[٥]: قصدت في بعض الأيام رجلاً كنت أغشاه[٦] لكرمه فوجدت على بابه بواباً فمنعني من الدخول إليه، ثم قال: والله يا أصمعي، ما أوقفني على بابه لأمنع مثلك إلا لرقة حاله وقصور يده[٧]

---

[١] أمهد: أعد وأجهز.

[٢] أحشمني: أخجلني.

[٣] العمارة: السفن.

[٤] عبارة يراد بها المدح والثناء.

[٥] الأصمعي: راوية أخبار العرب وأشعارهم.

[٦] أغشاه: أزوره.

[٧] قصور يده: خلوها من المال.

فكتبت رقعة فيها[1]:

إذا كـان الكـريم لـه حجـاب   فما فضل الكريم على اللئيم؟

ثم قلت للبواب: أوصل رقعتي إليه ففعل، ثم عاد بالرقعة وقد وقع على ظهرها:

إذا كـان الكـريم قليـل مـال   تحجـب بالحجـاب عـن

ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار، فقلت: والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر. فلما رآني قال: من أين يا أصمعي؟ قلت: من عند رجل من أكرم الأحياء، وأعدت عليه الخبر، فلما رأى الصرة قال: هذه من بيت مالي ولا بد لي من الرجل. فقلت: والله يا أمير المؤمنين إني استحي أن أروعه[3] برسلك، فقال لبعض خاصته: امض مع الأصمعي فإذا أراك الرجل قل له: أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج.

فلما حضر الرجل بين يدي المأمون قال له: أما أنت الذي وقفت لنا بالأمس وشكوت رقة حالك فدفعنا إليك هذه الصرة لتصلح بها شأنك، فقصدك الأصمعي ببيت واحد، فدفعتها إليه؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين. والله ما كذبت فيما شكوت لأمير المؤمنين من رقة الحال؛ ولكني استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدي إلا كما أعادني أمير المؤمنين، فقال له المأمون: لله أنت، فما ولدت العرب أكرم منك!! ثم

---

[1] الرقعة: القطعة من الورق يكتب الإنسان فيها ما يريد.

[2] الغريم: المطالب.

[3] أروعه: أزعجه وأخيفه.

بالغ في إكرامه وجعله من ندمائه[1]

الفرزدق وهشام بن عبد الملك[2]

حج هشام بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد، ومعه رؤساء أهل الشام فطاف، وجهد[3] أن يستلم الحجر، فلم يقدر من الازدحام فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس فأقبل علي بن الحسين رضي الله عنهما؛ وهو أحسن الناس وجهاً، وأنظفهم ثوباً، وأطيبهم راحة[4] فلما طاف بالبيت وبلغ الحجر تنحى[5] الناس كلهم إجلالاً له فاستلم الحجر وحده؛ فغاظ ذلك هشاماً، وبلغ منه فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا أصلح الله الأمير؟ قال: لا أعرفه وكان به عارفاً؛ ولكنه خاف من رغبة أهل الشام فيه فيملكوه عليهم. فقال الفرزدق– وكان حاضراً: أنا أعرفه يا شامي قال: من هو؟ قال:

هـذا الـذي تعـرف البطحـاء[6] ... والبيـت يعرفـه والحـل والحـرم

هـذا ابـن خيـر عبـاد الله كلهـم[7] ... هذا التقي النقي الطاهر العلم

إذا رأتــه قــريش قــال قــائلهم: ... إلـى مكـارم هـذا ينتهـي الكـرم

هـذا ابـن فاطمـة إن كنـت جاهلـه ... يجـده أنبيــاء الله قــد ختمــوا

---

[1] ندمائه: خاصته.

[2] الفرزدق: من فحول الشعراء الأمويين. نشأ بالبصرة والبادية. مات سنة ١١٤هـ

[3] جهد: حاول وتعب.

[4] الراحة: باطن اليد.

[5] تنحي الناس: ابتعدوا وأفسحوا.

[6] البطحاء: أي بطحاء مكة.

[7] كناية عن الرسول عليه السلام.

يكـاد يمســكه عرفـان راحتــه ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

ولـيس قولـك: مـن هـذا بضـائره العــرب تعــرف مــن أنكــرت

فحبسه هشام أياماً ثم أطلقه، فوجه إليه علي بن الحسين عشرة آلاف درهم وقال: اعذرنا[٢] يا أبا فراس؛ فلو كان معنا في هذا الوقت أكثر لوصلناك به، فردها الفرزدق وقال: ما قلت ما كان إلا لله. فقال علي بن الحسين: قد رأى الله مكانك، ولكنا أهل بيت إذا أنفذنا[٣] شيئاً لم نرجع فيه، وأقسم عليه فقبلها.

موقف بين الموت والحياة

كان تميم بن جميل الخارجي[٤]، قد خرج على المعتصم، فجئ به أسيراً فأدخل عليه في يوم موكب، وقد جلس المعتصم للناس مجلساً عاماً؛ ودعا بالسيف والنطع[٥]، فلما مثل بين يديه نظر إليه المعتصم، فأعجبه شكله وقده، ورآه يمشي إلى الموت غير مكترث به، فأطال الفكرة فيه؛ ثم استنطقه[٦]، لينظر في عقله وبلاغته فقال:

يا تميم إن كان لك عذر فأت به، فقال: أما إذا أذن أمير المؤمنين جبر الله به صدع[٧]، الدين، ولم شعث[١] المسلمين، وأخمد شهاب

---

[١] القصيدة طويلة روى منها ابن خلكان ٢٧ بيتاً ولم يذكر مؤلف الثمرات سوى هذه الأبيات.

[٢] اعذرنا: التمس لنا عذراً.

[٣] أنفذنا: أمضينا.

[٤] الخارجي: نسبة إلى الخوارج، وهم جماعة كانوا يخرجون على الخلفاء بالفتن والثورات.

[٥] النطع: فراش من جلد يفرش تحت من تقطع رأسه.

[٦] استنطقه: طلب نطقه، استجوبه.

[٧] الصدع: الكسر والشق.

الباطل وأنار سبل الحق؛ فالذنوب يا أمير المؤمنين تخرس الألسن، وتصدع الأفئدة، وأيم الله[٢]، لقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة وساء الظن، ولم يبق إلا العفو، وهو الأليق بشيمك الطاهرة ثم أنشد.

أرى الموت بين السيف والنطع ... يلاحظني من حيث ما

وأكثر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله

ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه

وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء

ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت

كأني أراهم حين أنعي[٧] إليهم ... وقد لطموا تلك الخدود

فإن عشت عاشوا سالمين ... أذود الردى عنهم وإن مت

وكم قائل: لا يبعد الله داره[٩] ... وآخر جذلان يسر ويشمت

فبكى المعتصم وقال: إن من البيان لسحراً. ثم قال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل[١٠] وقد وهبتك لله لصبيتك وأعطاه

---

(١) الشعث: المتفرق.

(٢) أيم الله، لغة في أيمن الله: معناها القسم.

(٣) يلاحظني أينما تلفت حتى لا أحاول الهرب منه.

(٤) يفلت: يهرب ويتخلص.

(٥) سيف الموت قد سل من غمده وأعد لقتله.

(٦) مؤقت: له أجل محدد.

(٧) أنعي: يسمعون بموتي.

(٨) الغبطة: الفرح والسرور– أذود الردى: أمنع عنهم الهلاك– وموتوا: ماتوا وقتلوا

(٩) دعاء له بأن يحفظه الله ويبقيه.

(١٠) مثل يضرب لانقطاع الأمل من الشيء بعد فوات أوانه.

خمسين ألف درهم.

إبطال الحشيش

من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر خليفة القاضي الفاصل في إبطال الحشيش. قوله:

قد بلغنا أن الجماعة التي كانت ترضع ثدي الكأس[١] عن ثديها ما فطمت، وأنها في النشوة[٢] ما خيبت إبليس مسعاها، وأنها لما أخرج المنع عنها ماء الخمر، وأخرج لها من الحشيش مرعاها، وأنها استراحت من الخمار[٣]، واستغنت بما تشتريه بدرهم، عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار؛ وإن ذلك فشا[٤] في كثير من الناس، وعرف في عيونهم ما يعرف من الاحمرار في الكأس، وصاروا كأنهم خشب مسندة سكراً؛ وإذا مشوا يقدمون لفساد عقولهم رجلاً ويؤخرون أخرى[٥].

ونحن نأمر بأن تجتث[٦]، أصولها وتقتلع، ويؤدب غارسها حتى يحصد الندامة مما زرع؛ وتطهر منها المساجد والجوامع، ويشهر مستعملها في المحافل والمجامع، حتى تتنبه العيون من هذا الوسن [٧]،

---

[١] شبه الكأس لشارب الخمر بثدي الأم بالنسبة للطفل.

[٢] النشوة: لذة السكر.

[٣] الخمار: بائع الخمر.

[٤] فشا: ذاع وانتشر.

[٥] العبارة كناية عن التردد والاضطراب.

[٦] تجتث: تقطع.

[٧] الوسن: النعاس.

وحتى لا تشتهي بعدها خضراء ولا خضراء الدمن[١].

المنشئ الكامل

قال أبو حيان التوحيدي: يجب على المنشئ أن يكون حافظاً لكتاب الله لينتزع من آياته الشريفة، وأن يعرف كثيراً من السنة والأخبار والتواريخ والسير، ويحفظ كثيراً من الرسائل والكتب؛ ويكون متناسب الألفاظ، متشاكل المعاني، عارفاً مما يحتاج إليه، ماهراً في نظم بديع الشعر، متودداً إلى الناس مخالطاً لهم، غير متكبر عليهم دمث الأخلاق، رقيق الحواشي، عذب السجايا، حسن المحاضرة مليح النادرة، غير قنف[٢]، ولا متعجرف، ولا متكلف الألفاظ الغريبة ولا متعسف اللغة العويصة.

من فنون الإنشاء

قالوا: ومن فوائد الإنشاء لتي يتسع فيها المجال على المنشئ أن السجع مبني على الوقف، وكلمات الأسجاع[٣]، موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز[٤]، موقوفاً عليها؛ لأن الغرض أن يجانس المنشئ بين القرائن وبزواج، ولا يتم له ذلك إلا بالوقف؛ إذ لو ظهر الإعراب لفات

---

[١] خضراء الدمن: ما ينبت على فضلات الحيوان، فيكون زاهياً ناضراً.

[٢] قنف: متعجرف ومتكلف.

[٣] السجع: أن تتقارب الجمل في ألفاظها، وتتشابه في الحرف الأخير من كل منها، وهو في النثر شبيه بالشعر في التظلم.

[٤] الأعجاز: الأواخر.

ذلك الغرض، وضاق المجال على قاصده؛ فإن قافية[1]، السجعة إذا كانت في محل نصب وأختها في محل رفع- ساوى بينهما السكون، وصار الإعراب مستراً؛ فلو أثبتوا الإعراب في قول من قال: ما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو آت- لزم أن تكون التاء الأولى مفتوحة والثانية مكسورة منونة؛ فيفوت غرض المنشئ.

ومن ذلك أن السجع مبني على التغيير، فيجوز أن يغير لفظ القافية الفاصلة، لتوافق أختها، ومن ذلك الإمالة[2]، فقد يكون في الفواصل ما هو من ذوات الياء، وما هو من ذوات الواو، فتمال التي هي من ذوات الواو، وتكتب بالياء حملاً على ما هو من ذوات الياء؛ كقوله تعالى: {وَالضُّحَى} [الضحى:١] فالضحى أميلت وكتبت بالياء حملاً على ما في السورة الشريفة من ذوات الياء لأجل الموافقة.

وكذلك سورة: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} [الشمس:١]، أميلت فيها ذوات الواو وكتبت بالياء جملاً على ما فيها من ذوات الياء. ومن ذلك حذف المفعول نحو قوله تعالى: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى:٣]؛ الأصل: قلاك، ولكن حذفت الكاف لتوافق الفواصل.

ومن ذلك صرف ما لا ينصرف[3] كقوله تعالى: {قَوَارِيرَ}- صرفه بعض القراء السبعة ليوافق فواصل السورة الشريفة. ولو تتبع المتأمل ذلك في الكتاب العزيز لوجده كثيراً.

---

[1] قافية السجعة: الحرف الأخير منها.

[2] الإمالة: أن تمال الألف نحو الياء في الصوت.

[3] ما لا ينصرف: ما لا ينون.

ومما جاء من ذلك في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم:

أعيذه من الهامة[1] والسامة[2] ومن كل عين لامة، والأصل عين ملمة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:

مأزورات غير مأجورات- الأصل موزورات بالواو، لأنه من الوزر، ولكنه همز ليوافق مأجورات.

ومنه أيضاً: دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم؛ الأصل ما واد عوكم، فحذفت الألف لتحصل الموافقة

براعة عمر بن الوردي

لما دخل الإمام الشاعر ابن الوردي مدينة دمشق في أيام قاضي القضاة نجم الدين الشافعي. أجلسه في صفة الشهود، المعروفة بالشباك؛ وكان الشيخ ابن الوردي يلبس زي أهل المعرة، فاستزراه[3] الشهود، وحضر كتاب مشترى[4] فقال بعضهم:

أعطوا المعري، يكتبه، فقال ابن الوردي: ترسمون[5] أكتبه نظماً أم نثراً؟ فزاد استهزاؤهم به فقالوا: نظما، فأخذ القرطاس وكتب:

باسم إله الخلق هذا ما اشترى محمد بن يونس بن سنقرا

---

[1] الهامة: كل ما له سم كالحية.

[2] السامة: ذات السم.

[3] استزراه: احتقره.

[4] كتاب مشترى: عقد شراء: حجة.

[5] ترسمون: تريدون وتأمرون أن أكتبه...؟

من مالك بن أحمد بن الأزرق ... كلاهما قد عرفا من جلق[1]

فباعه قطعة أرض واقعة ... بكورة الغوطة وهي جامعه[2]

لشجر مختلف الأجناس ... والأرض في البيع مع الغراس

وذرع[3] هذى الأرض بالذارع ... عشرون بالطول بلا نزاع

وذرعها في العرض أيضاً عشرة ... وهو ذراع باليد المعتبرة

وحدها من قبلة[4] ملك التقى ... وحائز الرومي حد المشرق

ومن شمال ملك أولاد علي ... والغرب ملك عامر بن جهبل

وهذه تعرف من قديم ... بأنها قطعة بيت الرومي

بيعاً صحيحاً لازماً شرعياً ... تم شراء قاطعاً مرعياً

بثمن مبلغه من فضه ... وازنة جيدة مبيضه

جارية للناس في المعاملة ... ألفان منها النصف ألف كاملة

قبضها البائع منه وافيه ... فعادت الذمة منه خاليه

وسلم الأرض إلى من اشترى ... فقبض القطعة منه وجرى

بينهما بالبدن التفرق[5] ... طوعاً فما لأحد تعلق

ثم ضمان الدرك المشهور ... فيه على بائعه المذكور

وأشهدا عليهما بذاك في ... رابع عشر رمضان الأشرف

---

[1] جلق: مدينة دمشق.

[2] كورة الغوطة: بأطراف دمشق.

[3] ذرعها: مقياسها بالذراع وهو ذراع اليد المعتبرة في المقياس.

[4] من قبلة: أي من جهة القبلة التي هي مكة والمراد حدها من الجنوب.

[5] البدن: الجسم، والقصد أن البيع أصبح تاماً نافذاً بعد تفرق المتبايعين.

مـــن عـــام ســـبعمائة وعشـــرة　　من بعد خمس تليها الهجرة

والحمـــــد لله وصـــــلى ربـــــي　　علـى النبـي وآلـه والصـحب

يشـهد بالمضـمون من هـذا عمر　　ابـن المظفـر المعرى إذ حضـر

فلما فرغ ابن الوردي من إنشاء هذه الحجة الشرعية وتأمل الجماعة سرعة بديهته مع استيعاب[1] الشروط الشرعية، اعترفوا بفضله، واعتذروا إليه. لما علموا أنه ابن الوردي وأجلسوه في الصدر[2]: ولكنهم عجزوا عن رسم الشهادة نظماً، وسألوه ذلك، فكتب عن شخص منهم إلى جانبه يدعى ابن رسول:

قـد حضـر العقـد لـذاك أحمـد　　ابـــن رســـول وبـــذاك يشـــهد

المختار من الذيل الأول لكتاب ثمرات الأوراق

لابن حجة الحموي المتوفي ٨٣٧هـ

لماذا حج الرشيد ماشياً؟

يحكى أن هارون الرشيد حج ماشياً؛ وأن سبب ذلك أن أخاه موسى الهادي كانت له جارية تسمى (غادر) وكانت أحظى[3] الناس عنده. وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناء.

فبينما كانت تغني يوماً وهو مع جلسائه على الشراب، إذ عرض له سهو وفكر، فتغير لونه وقطع الشراب؛ فقال الجلساء:

---

(١) الاستيعاب: الاستكمال.

(٢) الصدر: أشرف مكان في المجلس.

(٣) أحظى: أكثر حظوة وأقرب منزلة.

ما شأنك يا أمير المؤمنين؟

فأجاب: قد وقع في قلبي أن جاريتي (غادر) يتزوجها أخي هارون الرشيد بعدي!!

فقال الجلساء: يطيل الله بقاء أمير المؤمنين، وكلنا فداؤه!! فقال: لقد تمكن هذا الخاطر من نفسي.

ثم أمر بإحضار هارون الرشيد، وعرفه ما خطر بباله، فاستعطفه وتكلم بما ينبغي أن يتكلم به في تطييب نفسه؛ وإزالة هواجسه[١] فلم يقنع بشيء مما قاله له

وقال: لا بد أن تحلف لي.

فقال الرشيد: أفعل يا أمير المؤمنين، وحلف له بكل يمن يحلف بها الناس من طلاق وعتاق وحج وصدقة وأشي مؤكدة.

فسكنت نفس الهادي؛ ثم قام فدخل على الجارية فأحلفها[٢] بمثل ما حلف به الرشيد؛ ولم يلبث الهادي بعد ذلك إلا شهراً، ثم مات

فلما أفضت[٣] الخلافة إلى هارون الرشيد، أرسل إلى الجارية يخطها فقالت له: يا سيدي كيف بأيمانك وأيماني؟!

فقال: احلف بكل شيء حلفت به من الصدقة والعتق وغيرهما إلا تزوجتك

---

[١] الهواجس: ج هاجس، وهو الخاطر الذي يرد على مخيلة الإنسان.

[٢] أحلفها: تجعلها تحلف.

[٣] أفضت: صارت وآلت.

فتزوجها وحج ماشياً ليمينه[1]؛ وشغف بها أكثر من أخيه حتى كانت تنام فيضجع رأسها في حجره؛ ولا يتحرك لئلا تنتبه!

فبينما هي ذات ليلة نائمة؛ إذ انتهت فزعة؛ فقال لها الرشيد: مالك!؟ قالت: رأيت أخاك في المنام الساعة وهو يقول:

أخلفـــت وعـــدك بعـــدما	**جـــاورت ســـكان المقـــابر**
ونســـيتني وحنثـــت[2] فـــي	**أيمانـك الكـذب[3] الفـواجر**
فظللـــت فـــي أهـــل البلـــى	**وغـدوت في الحـور الغرائـر[4]**
ونكحـــت- غـــادرة- أخـــي	**صـدق الـذي سـماك [غـادر]**
لا يهنـــك الإلـــف الجديـــد	**ولا تـــدر عنـــك الـــدوائر[6]**
ولحقـــت بـــي قبـــل الصـــباح	**وصرت حيث غدوت صائر[7]**

والله يا أمير المؤمنين فكأنها مكتوبة في قلبي، ما نسيت منها كلمة؛

فقال الرشيد: هذه أضغاث أحلام[8]

فقالت: كلا والله، ما أملك نفسي!

---

[1] ليمينه: أي ليكفر عن يمينه.

[2] حنث في يمينه: لم يبريها.

[3] الكذب: ج كاذبة وهي اليمين الكاذبة.

[4] البلى: الموت والهلاك- وغدوت: صرت، الحور: ج حوراء وهي التي يشتد بياض عيونها في سوادها- والغرائر: ج جمع غريرة، وهي الحسنة الخلق.

[5] نكحت غادرة، تزوجت غيري وهذا غدر منك.

[6] لا يهنك الإلف: يدعو عليها بعدم السعادة مع زوجها الجديد وألا تفارقها المصائب.

[7] يدعو عليها أن تصير إلى ما صار إليه من الموت فتلحق به.

[8] أضغاث أحلام: أحلام مختلطة لا تأويل لها.

وما زالت ترتعد حتى ماتت بعد ساعة

قصة الأموي مع الرشيد

حكى (منارة) صاحب الخلفاء قال:

رفع إلى هارون الرشيد أن رجلاً بدمشق من بقايا نبي أمية، عظيم المال كثير الجاه، مطاعاً في البلدان؛ له جماعة وأولاد ومماليك، وموال[1]، يركبون الخيل، ويحملون السلاح، ويغزون الروم، وأنه سمح جواد كثير البذل[2] والضيافة وأنه لا يؤمن من فتق[3] يبعد رتقه

فعظم ذلك على الرشيد؛ فقال منارة:

وكان وقوف الرشيد على هذه الأمور، وهو بالكوفة في بعض حجه سنة ١٨٦ وقد عاد من الموسم وبايع للأمين والمأمون؛ فدعاني وهو خال وقال: إني دعوتك لأمر يهمني وقد منعني النوم، فانظر كيف تعمل؟ ثم قص علي خبر الأموي وقال:

اخرج الساعة؛ فقد أعددت لك الجائزة والنفقة والآلة[4] وتضم إليك مائة غلام، وأسلك البرية؛ وهذا كتابي إلى أمير دمشق، وهذه قيود، فإذا وصلت فابدأ بالرجل؛ فإن سمع وأطاع فقيده وجئني به؛ وإن عصى فتوكل به أنت ومن معك وأنفذ هذا الكتاب إلى نائب الشام، ليركب في

---

[1] الموالي: العبيد.

[2] البذل: الجود وشالعطاء.

[3] فتق: المراد به هنا الفتنة والثورة، والمراد الرتق هنا: صلاح الأمور.

[4] الآلة: المراد بها عدة السفر.

جيشه ويقبضوا عليه، وجئني به وقد أجلتك لذهابك ستاً، ولمجيئك ستاً[1] وهذا محمل[2] تجعله في شقة إذا قيدته، وتقعد أنت في الشق الآخر، ولا تكل حفظه إلى أحد غيرك، حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك

فإذا دخلت داره فتفقدها[3] وجميع ما فيها وأهله وولده وحشمه وغلمانه؛ وقدر النعمة والحال والمحل، وأحفظ ما يقوله الرجل حرفاً بحرف من ألفاظ من حين وقوع طرفك عليه، إلى أن تأتيني به، وإياك أن يشذ عنك[4] شيء من أمره.

قال منارة فودعته وخرجت، وركبت الإبل وسرت أطوى المنازل[5]، وأسير الليل والنهار، ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين، وتنفيس الناس قليلاً، إلى أن وصلت دمشق في أول الليلة السابقة، وأبواب البلد مغلقة، فكرهت الدخول ليلاً، فمنت بظاهر البلد إلى أن فتح الباب فدخلت على هيئتي حتى أتيت دار الرجل، وعليها صف عظيم وحاشية كثيرة؛ فلم أستأذن ودخلت بغير إذن.

فلما رأى ذلك القوم سألوا بعض غلماني فقالوا لهم:

هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم؛ فلما صرت في

---

[1] ستاً: أي سنة أيام.

[2] المحمل: مكان الحمل والشقة الجانب منه.

[3] تفقدها: كن واعياً لكل ما تراه فيها.

[4] يشذ عنك: يغيب عنك.

[5] المنازل: المراحل (محل النزول)

صحن[1]، الدار نزلت مجلساً رأيت فيه قوماً جلوساً فظننت أن الرجل فيهم؛ فقاموا ورحبوا بي فقلت:

أفيكم فلان؟ قالوا: لا- نحن أولاده وهو في الحمام فقلت: استعجلوه، فمضى بعضهم يستعجله وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية، فوجدتها قد ماجت بأهلها موجاً شديداً. فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن أطال في غيبته، واستربت به[2]، واشتد قلقي وخوفي من أن يتوارى[3]، إلى أن رأيت شيخاً بزي الحمام يمشي في الصحن، وحواليه جماعة كهول وأحدات وصبيان، وهم أولاده وغلمانه؛ فعلمت أنه الرجل.

***

فجاء حتى جلس فسلم علي سلاماً خفياً، وسألني عن أمير المؤمنين، واستقامة أمر حضرته، فأخبرته كما وجب وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة، فقال:

تقدم يا منارة فكل معنا، فقلت:

مالي إلى ذلك من حاجة؛ فلم يعاودني وأقبل يأكل ومن معه، حتى غسل يديه ودعا بالطعام، فجاءوا بمائدة عظيمة لم أر مثلها إلا للخليفة، فقال:

---

(1) صحن الدار: وسطها.

(2) استربت: شككت.

(3) يتوارى: يختفي.

تقدم يا منارة فساعدنا على الأكل، لا يزيدني على أن يدعوني باسمي كما يدعوني الخليفة، فامتنعت عليه، فما عاودني وأكل هو ومن معه، وكانوا تسعة من أولاده؛ فتأملت أكله فوجدته يأكل كما تأكل الملوك، ووجدت جأشة[1]، رابضاً، وذلك الاضطراب الذي في داره قد سكن.

وقد كان غلمانه أخذوا لما دخلنا الدار جمالي وجميع غلماني بالمنع من الدخول فما أطاقوا مما نعتهم وبقيت وحدي ليس بين يدي إلا خمسة أو ستة غلمان وقوف على رأسي فقلت في نفسي:

هذا جبار عنيد وإن امتنع علي من الشخوص لم أطق أشخاصه بنفسي ولا بمن معي، ولا أطيق حفظه إلى أن يلحقني أمير البلد؛ فجزعت جزعاً شديداً، ورابني [2]، منه استخفافه بي في الأكل، ولا يسأل عما جئت له، ويأكل مطمئناً.

فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا ببخور فتبخر وقام إلى الصلاة فصلي الظهر، وأكثر من الدعاء والابتهال فرأيت صلاته حسنة؛ فلما انتقل من المحراب أقبل علي وقال: ما أقدمك يا منارة؟

فقلت: أمر لك من أمير المؤمنين، وأخرجت الكتاب ودفعته إليه فقرأه فلم استم قراءته دعا أولاً بأولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلق كثير، فلم أشك أنه يريد أن يوقع [3] بي، فلما تكاملوا ابتدأ فحلف أيماناً

---

[1] الجأش: القلب والعزم، والرابض الهادئ الساكن.

[2] رابني: داخلني الشك.

[3] يوقع بي: ينزل بي شراً.

مغلظة، وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم، ولا يجتمع منهم اثنان في مكان واحد؛ ولا يظهروا إلى أن يظهر لهم أمر يعلمون به.

وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالتوجه إليه ولست أقيم بعد نظري فيه لحظة واحدة؛ فاستوصوا بمن ورائي من الحرم[1] خيراً، وما بي حاجة لأن يصحبني غلام، هات قيودك يا منارة، فدعوت بها وكانت في سفط[2] وأحضرت حداداً فمد ساقيه فقيدته وأمرت غلماني بحمله في المحمل وركبت في الشق الآخر، وسرت من وقتي ولم ألق أمير البلد ولا غيره.

***

فسرت بالرجل ليس معه أحد، إلى أن صرت بظاهر[3] دمشق فابتدأ يحدثني بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن في الغوطة[4] فقال لي:

ترى هذا؟ قلت: نعم. قال: إنه لي وإن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت؛ ثم انتهى على آخر، فقال لي مثل ذلك، ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى سنية وقال: هذه لي، فاشتد غيظي منه فقلت له:

اعلم أني شديد التعجب منك، قال: ولم تعجب؟ قلت: ألست تعلم أن أمير المؤمنين قد أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك وولدك وأخرجك عن جميع مالك فريداً وحيداً، مقيداً ما تدري إلى

---

[1] الحرم: كل ما يحميه الإنسان ويدافع عنه.

[2] السفط: القفة أو الكيس.

[3] ظاهر دمشق: خارجها، في أطرافها.

[4] الغوطة: بساتين دمشق وحدائقها.

أي شيء يصير إليه أمرك؟! ولا كيف يكون؟! وأنت فارغ القلب[1] من هذا، تصف ضياعك وبساتينك!! هذا وقد رأيتك وقد جئت وأنت لا تعلم فيم جئت؟ وأنت ساكن القلب قليل الفكر، لقد كنت عندي شيخاً فاضلاً.

فقال لي مجيباً: إنا لله وإنا إليه راجعون!!

أخطأت فراسي فيك، ظننتك رجلاً كامل العقل، وأنك ما حللت من الخلفاء هذا المحل إلا بعد أن عرفوك بذلك؛ فأنا والله رأيت عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم، والله المستعان.

أما قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه، فإني على ثقة من الله عز وجل الذي بيده ناصيتي[2]؛ ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله ومشيئته، ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه.

وبعد- فإذا عرف أمري وعلم سلامتي وصلاحي وبعد ناحيتي، وأن الحسدة[3] والأعداء رموني عنده بما ليس في، وتقولوا على الأقاويل الكاذبة- لم يستحل دمي وتحلل من أذاي وازعاجي وردني مكرماً، وأقامني ببابه معظماً.

***

---

(1) فارغ القلب: أي لا يحمل هما.

(2) الناصية: مقدم الرأس، والمراد هنا: حياته.

(3) الحسدة: ج حاسد.

وإن كان قد سبق في علم الله سبحانه وتعالى أن يبدر إلى منه بادرة سوء، وقد حضر أجلي، وكان سفك دمي على يده، فلو اجتمعت الإنس والجن والملائكة وأهل الأرض وأهل السماء على صرف[١] ذلك عني ما استطاعوه فلم أتعجل الغم وأتسلف الفكر فيما قد فرغ الله منه وإني حسن الظن به عز وجل، خلق ورزق وأحيا وأمات، وأحسن وأجمل. وإن الصبر والرضا والتفويض والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا.

فإذ قد عرفت مبلغ فهمك فإني لا أكلمك بكلمة واحدة حتى تفرق حضرة أمير المؤمنين بيننا إن شاء الله تعالى. قال منارة: ثم أعرض عني فما سمعت منه لفظة واحدة غير القرآن والتسبيح حتى شارفنا[٢] الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر، والنجب[٣] قد استقبلتني على فراسخ من الكوفة، يتجسسون خبري فحين رأوني رجعوا إلى أمير المؤمنين، فانتهيتا إلى الباب في آخر النهار فحططت رواحلي ودخلت على الرشيد، فقبلت الأرض بين يديه؛ ووقفت فقال: هات ما عندك يا منارة، وإياك أن تغفل منه لفظة واحدة، فسقت الحديث من أوله إلى آخره؛ حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور والصلاة؛ وما حدثت به نفسي من امتناعه علي. والغضب يظهر في وجه الرشيد ويتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأموي من الصلاة، والتفاته إلى مسألته لي عن

---

[١] صرف ذلك: منعه والحيلولة دونه.

[٢] شارفنا الكوفة: أصبحنا قريبين منها.

[٣] النجب: المراد: الذين يركبون النجائب.

سبب قدومي، ودفعي الكتاب إليه، ومبادرته إلى إحضار ولده وحلفه عليهم ألا يتبعه منهم أحد، وصرفه إياكم؛ ومد رجليه حتى قيدته.

فما زال وجه الرشيد يسفر، حتى انتهيت إلى ما خاطبني به عند توبيخي إياه لما ركبنا المحل. قال: صدق والله ما هذا إلا رجل محمود على النعمة، مكذوب عليه؛ ولعمري[1] لقد أزعجناه وآذيناه، وروعنا أهله؛ فبادر بنزع قيوده عنه، وائتني به.

قال: فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته على الرشيد؛ فسأله عن حاله، ثم قال: بلغنا عنك فضل هيئة وأمور أحببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك؛ فاذكر حاجتك، فأجابه الأموي جواباً جميلاً؛ وشكر ودعا وقال: يا أمير المؤمنين تردني إلى أهلي وبلدي وولدي.

قال: نفعل ذلك إن شاء الله تعالى؛ ولكن سل ما تحتاج إليه في مصالح جاهك ومعاشك؛ فإن مثلك لا يخلو أن يحتاج إلى شيء من هذا؛ فقال: عمال أمير المؤمنين منصفون، وقد استغنيت بعدله عن مسألته، فأموري منتظمة وأحوالي مستقيمة، وكذلك أمور أهل بلدي؛ بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين، فقال الرشيد: انصرف محفوظاً إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك، ثم ودعه فلما ولى خارجاً، قال الرشيد يا منارة! احمله من وقته وسر به راجعاً إلى أهله كما جئت به حتى توصله إلى محله الذي أخذته منه.

---

(1)

سلطان العلماء[1]

حكي أن شخصاً جاء إلى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي سلطان العلماء فقال له: رأيتك في المنام تنشد:

وكنــت كــذي رجلــين رجــل ورجــل رمــى فيهــا الزمــان

***

فسكت سلطان العلماء مفكراً، ثم قال: سأعيش ثلاثاً وثمانين سنة، فإن هذا الشعر لكثير عزة، ولقد فكرت فلم أجد بيني وبينه نسبة فإني سني، وهو شيعي وأنا طويل، وهو قصير وهو شاعر، ولست بشاعر وأنا سلمي، وهو خزاعي وأنا شامي، وهو حجازي فلم يبق إلا السن، فأعيش مثله!

ولقد تحقق له من العمر ما كان لكثير عزة فصدقت فراسته، التي استخرجتها بذكائه وقياسه المنطقي.

قصيدة ابن زريق البغدادي

في شكوى الزمان والحنين إلى الأوطان

لا تعذليــه فــإن العــذل يوجعــه قــد قلــت قــولاً ولكــن لــيس

---

[1] انتهت إليه معرفة مذهب الإمام الشافعي إلى الزهد والورع- قدم مصر من الشام بعد أن كان متولياً للخطابة والإمامة بالمسجد الأموي- فأقام بها أكثر من عشرين سنة وولاه سلطانها الملك الصالح نجم الدين خطابة جامع عمرو بن العاص والقضاء بمصر وبالوجه القبلي. توفي سنة ٦٦٠هـ.

[2] شلت يده: يبست وعجزت عن الحركة.

[3] لا تلوميه فإن اللوم يزيد من علته وبدواه.

جاوزت في لومه حداً أضر به   من حيث قدرت أن اللوم

فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً   من عنفه فهو مضني القلب

قد كان مضطلعاً بالبين يحمله   فضلعت بخطوب البين

يكفيه من لوعة التفنيد أن له   من النوى كل يوم ما يروعه[٤]

ما آب من سفر إلا وأزعجه   رأى إلى سفر بالرغم يتبعه[٥]

كأنما هو في حل ومرتحل   موكل بفضاء الأرض يذرعه

إذا الزماع أراه في الرحيل غني   ولو إلى السند أضحى وهو

تأبى المطامع إلا أن تجشمه   للرزق كدا وكم ممن يودعه[٧]

وما مجاهدة الإنسان واصلة   رزقاً ولا دعة الإنسان تقطعه[٨]

والله قسم بين الناس رزقهم   لم يخلق الله مخلوقاً يضيعه

لكنهم ملئوا حرصاً فلست ترى   مسترزقاً وسوى الغايات

والحرص في المرء والأرزاق قد   بغى ألا إن بغي المرء

---

[١] أسرفت في لومه كثيراً حتى أضر به اللوم من حيث ظننت أن اللوم ينفعه.

[٢] ترفقي به في التأنيب والتوبيخ بدلاً من العنف فهو مريض القلب بالهم والحزن.

[٣] ضلعت أضلعه: أنحنت واعوجت من الخطوب والمصائب.

[٤] اللوعة: شدة الحزن، والتفنيد: التكذيب والتسفيه.

[٥] آب: رجع- أزعجه: أهم وأقلقه.

[٦] الزماع: العزم والمضاء- يزمعه: يقصده ويريده.

[٧] تجشمه: تكلفه مشقة، والكد: التعب والنصب.

وكم ممن يودعه: ما أكثر المودعين له: كناية عن كثرة رحيله.

[٨] المجاهدة: السعي في الأمور بجد ومشقة، والدعة: السكون والراحة.

[٩] مسترزقاً: طالب رزق سوى الغايات: أوساطها.

[١٠] الحرص: الطمع- يصرعه: يقتله.

والدهر يعطي الفتى ما ليس ... حقاً ويطمعه من حيث يمنعه[١]

استودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكرخ من فلك الأزرار

ودعته وبودي لو يودعني ... صفو الحياة وأني لا أودعه

وقد تشفع بي ألا أفارقه ... وللضرورات حال لا تشفعه[٣]

وكم تشبث بي يوم الرحيل ... وأدمعي مسهلات وأدمعه[٤]

لا أكذب الله ثوب العذر ... عني برقته لكن أرقعه[٥]

إني أوسع عذري في جنايته ... بالبين عنه وقلبي لا يوسعه

أعطيت ملكاً فلم أحسن ... كذلك من لا يسوس الملك

ومن غدا لابسا ثوب النعم بلا ... شكر عليه فإن الله ينزعه

اعتضت من وجه خلي بعد ... كأساً أجرع منها ما أجرعه[٧]

كم قائل لي: ذنب البين قلت ... الذنب والله ذنبي لست

هلا أقمت فكان الرشد أجمعه ... لو أنني يوم بان الرشد أتبعه[٩]

---

(١) يمتعه: يحول بينه وبين ما يريد.

(٢) الكرخ: حي في بغداد.

(٣) تشفع: رجا واستعطف.

(٤) وكم تشبث: كثيراً ما أمسك بي ليمنعني من الرحيل.

(٥) شبه أعذاره الواهية بالثوب المنخرق- فهو يريد أن يرقعه ويصلحه.

(٦) شبه سعادته التي كان ينعم بها مع محبوبته وأضاعها بسوء تصرفه في البعد عنها بمن أعطى ملكاً فلم يحسن سياسته فخلع عنه.

(٧) اعتضت- استعضت واستبدلت- وتجرع: شرب.

(٨) ذنب البين- أي هذا هو ذنب البين.

(٩) هلا أقمت: ليتني أقمت- بان: ذهب ومضى.

إنـي لأقطـع أيـامي وأنفـدها　　بحسرة منه في قلبي تقطعه[١]

بمـن إذا هجـع النـوام بـت بـه　　بلوعة منه ليلى لست أهجعه[٢]

لا يطمئن بجنبي مضجع وكذا　　لا يطمئن لـه مـذ بنت

مـا كنت أحسب ريب الدهر　　بـه ولا أن بي الأيام تفجعه[٤]

حتى جرى البين فيما بيننا بيد　　عسراء تمنعني حظي وتمنعه[٥]

بـالله يـا منـزل الأنـس الـذي　　آثاره وعفت مذ بنت أربعه[٦]

هـل الزمـان معيـد فيـك لـذتنا　　أم الليالي التي أمضته ترجعه؟

في ذمة الله من أصبحت منزله　　وجـاد غيـث علـى مغنـاك

لأصبرن لـدهر لا يمتعنـي بـه　　ولا بـي فـي حـال يمتعـه

علماً بأن اصطباري معقب فرجا　　فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه

عسـى الليـالي التـي أضـنت　　جسـمي سـتجمعني يومـاً

وإن ينـل أحـد منـا منيتـه　　فما الذي بقضاء الله بصنعه؟

المختار من الذيل الثاني لكتاب ثمرات الأوراق

للشيخ إبراهيم الأحدب المتوفى عام ٨٥٠ هجرية

---

(١) أنفدها: استنفدها وأفرغ منها بحسرات يتقطع لها قلبي.

(٢) هجع: نام واللوعة احتراق القلب من الهم والعشق.

(٣) لا يطمئن بجنبي مضجع: كناية عن سهره وقلقه منذ فارق محبوبه.

(٤) ريب الدهر: فواجعه ومصائبه.

(٥) البين: الفراق- يد عسراء: مشئومة.

(٦) درست الديار: لم يبق إلا آثارها- وعفت كدرست، والأربع المنازل.

(٧) في ذمة الله: في عهده ورعايته- يمرعه: يخصبه.

(٨) أضني: أهزل وأضعف.

من حيل الحرب

حكى أن بعض الملوك، حاصر ملكاً وأطال في حصاره فلما اشتدت به المحاصرة، استدعى وزراءه فقالهم: ما ترون وقد تأخرت بنا هذه الحال؟ هل نسلم إليه أم نخرج عليه ليلاً ويفعل اللهبنا ما يشاء؟

فقال بعض الوزراء:

قد بدا لي رأى، أرى أنهم ينصرفون به عنا من غير قتال، فقال الملك: ما هو؟

قال: يجمع مولاي ما في خزانته من الذهب، ويستدعى الصياغ ويأمرهم أن يصوغوه سهاماً، زنة كل سهم قدر معلوم، فلما تم صنع السهام كتب الوزير عل كل نصل سطرين ثم أمر أن تركب السهام؛ فلما ركبت، أمر حاشية الملك أن يأخذ كل واحد سهماً، وأمرهم أن يرموها عن قوس واحد على عسكر الأعداء، فتلألأ لمعان نصاً لها حتى أدهش العيون فأمر الملك أن تجمع، فلما جمعت بين يديه أمر أن يقرأ ما عليها فإذا هو مكتوب:

ومن جوده يرمي العفاة[1]، من الذهب الإبريز صيغت
لينفقها مجروحها في دوائه ويشتري الأكفان منها قتيلها

فلما سمع هذه الأبيات أمر جنده بالرحيل من ساعته وقال: مثل هذا الملك لا يحاصر ولا يقاتل.

---

[1] العفاة: ج عاف؛ وهو طالب المعروف.

امرأة من آل برمك

دخلت امرأة على هارون الرشيد، وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت له:

يا أمير المؤمنين: أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك! وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت، فقال لها الرشيد: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك، ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم. فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك.

ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال:

أتدرون ما قالت المرأة؟

فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً.

قال: ما أظنكم فهمتم مقاصدها من كلامها، أما قولها: أقر الله عينك- فإنها تريد اسكنها عن الحركة؛ وإذا أسكنت العين عن الحركة عميت.

أما قولها: وفرحك بما آتاك- فإنها تريد به قول الله تعالى: حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة.

وأما قولها: وأتم الله سعدك فإنها تريد منه قول الشاعر:

إذ تـــم أمـــر بـــدا نقصـــه ترقـــب زوالاً إذا قيـــل تـــم

وأما قولها: لقد حكمت فقسطت[1]، فإنها تعني به قول الله تعالى: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا}الجن:١٥]

بين ملك وزوجة خادمة

حكى أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج، فلاحت منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره، لم ير الراءون أحسن منها؛ فالتفت إلى بعض جواريه فقال: لمن هذه؟ فقالت: هذه زوجة غلامك فيروز؛ فنزل الملك وقد خامره حبها[2]، وشغف بها، فاستدعى فيروز، وقال له: خذ هذا الكتاب وأمض به إلى البلدة الفلانية، وائتني بالجواب. فأخذ فيروز الكتاب وتوجه إلى منزله، فوضع الكتاب تحت الوسادة؛ فلما أصبح ودع أهله وسار طالباً حاجة الملك، ولم يعلم بما دبره الملك.

ذلك أنه لما توجه فيروز بالرسالة مسرعاً توجه الملك مختفياً إلى دار فيروز؛ فقرع الباب قرعاً خفيفاً؛ فقالت امرأة فيروز: من بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت له فدخل وجلس فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا؟! فقال: جئت زائراً. فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة!! وما أظن فيها خيراً!! فقال لها: ويحك! إنني أنا الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتني،؟ فقالت: يا مولاي لقد علمت أنك الملك ولكن سبقتك الأوائل في قولهم.

---

[1] قسط كضرب: جار وحاد عن الحق.
وقسط كنصر: عدل وقسم بالسوية.
[2] خامره: خالطه.

سأترك ماءكم من غير ورد وذاك لكثرة الرواد فيه

إذا سقط الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتهيه

وتجتنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب ولغن فيه[1]

ويرتجع الكريم خميص بطن[2] ولا يرضى مساهمة السفيه

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر.

قل للذي شفه الغرام بنا[3] وصاحب الغدر غير مصحوب

والله لا قال قائل أبداً قد أكل الليث فضلة الذيب

ثم قالت: أيها الملك؛ تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه؟ فاستحى الملك من كلامها وخرج وتركها؛ ونسى نعله في الدار. هذا ما كان من أمر الملك؛ وأما فيروز فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب[4] فلم يجده معه في رأسه[5] فتذكر أنه نسيه تحت فراشه فرجع إلى داره: فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره فوجد نعل الملك في الدار فطاش عقله؛ وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله؛ فسكت ولم يبد كلاماً، وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك فقضاها؛ ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار.

فمضى فيروز إلى زوجته فسلم عليها وقال لها: قومي إلى زيارة بيت

---

(١) ولغ الكلب في الإناء: شرب منه.

(٢) خميص باطن: خاوي البطن من الطعام: كناية عن الجوع.

(٣) شفه الغرام: أسقمه وأضناه.

(٤) تفقد الكتاب: بحث عنه.

(٥) في رأسه: في عمامته.

أبيك، قالت: وما ذاك؟ قال: إن الملك قد أنعم علينا، وأريد أن تظهري لأهلك ذلك. قالت: حباً وكرامة ثم قامت من ساعتها إلى بيت أبيها، ففرحوا بها، وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهراً فلم يذكرها زوجها، ولا ألم بها[1] فأتى إليه أخوها وقال له: يا فيروز إما أن تخبرنا بسبب غضبك، وإما أن تحاكمنا إلى الملك، فقال: إن شئتم الحكم فافعلوا، فما تركت لها علي حقاً، فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه فقال أخو الصبية: أيد الله مولانا قاضي القضاة، إني أجرت هذا الغلام بستاناً سالم الحيطان، ببئر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة فأكل ثمره وهدم حيطانه، وأخرب بئره فالتفت القاضي إلى فيروز وقال: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروزك أيها القاضي قد استلمت هذا البستان، وسلمته إليه أحسن ما كان، فقال القاضي: هل سلم البستان كما كان. قال نعم، ولكن أريد منه السبب لرده. قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهية فيه وإنما جئت يوماً من الأيام فوجدت فيه أثر الأسد، فخفت أن يغتالني فحرمت دخول البستان، إكراماً للأسد.

وكان الملك متكئاً فجلس وقال: يا فيروز ارجع إلى بستانك آمناً مطمئناً: فو الله إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثراً ولا التمس منه ورقاً ولا ثمراً ولا شيئاً؛ ولم يلبث غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس، ووالله ما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره، فرجع فيروز إلى داره، ورد زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من

---

[1] ألم بها: ذهب لزيارتها.

أصل القصة.

من أخلاق الملوك

حكي أن بهرام[1] الملك خرج يوماً للصيد؛ فانفرد عن أصحابه، فرأى صيداً فتبعه طامعاً في لحاقه حتى بعد عن عسكره؛ فنظر إلى راعٍ تحت شجرة فنزل عن فرسه يبول؛ وقال للراعي: احفظ على فرسي حتى أبول. فعمد الراعي إلى العنان وكان ملبساً بالذهب. فاستغفل بهرام، وأخرج سكيناً قطع به أطراف اللجام، وأخذ الذهب الذي عليه.

فرفع بهرام نظره إليه فرآه، فغض بصره[2]، وأطرق برأسه إلى الأرض، وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته من ذهب اللجام ثم قام بهرام وقد وضع يده على عينيه، وقال للراعي: قدم إلى فرسي فإنه قد دخل في عيني من سافي الريح فلا أقدر على فتحهما، فقدمه إليه فركب، وسار إلى أن وصل إلى عسكره فقال لصاحب مراكبه[3]: إن أطراف اللجام قد وهبتها لأحد الأعراب فلا تهمن بها أحداً.

رؤيا تتحقق

حكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحين قال:

كنا حول سرير المعتضد بالله، ذات يوم نصف النهار، فنام بعد أن أكل، ثم بعد فترة اتنبه منزعجاً وقال: يا خدم. فأسرعنا بالجواب

---

[1] بهرام: من ملوك الفرس.

[2] غض بصره: خفضه.

[3] مراكبه: أمور خيله.

فقال: ويلكم أعيوني والحقوا بالشط؛ فأول ملاح ترونه منحدراً في سفينة فارغة، فاقبضوا عليه وائتوني به، ووكلوا بالسفينة من يحفظها.

فأسرعنا فوجدنا ملاحاً في سفينة، فجئنا به المعتضد فلما رآه الملاح كاد يتلف[1].

فصاح عليه صيحة عظيمة، كادت روحه تذهب منها وقال له:

اصدقني يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلتها اليوم، وإلا ضربت عنقك.

فتلعثم وقال: كنت سحراً في المشرعة[2] الفلانية، فنزلت امرأة لم أر مثلها، عليها ثياب فاخرة، وحلى كثير وجواهر، فطمعت فيها، واحتلت عليها حتى سددت فمها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها؛ ثم طرحتها في الماء ولم أجسر على حمل سلبها إلى داري؛ لئلا يفشو الخبر، فعولت على الهرب، والإنحدار إلى واسط[3]؛ فصبرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين فأخذت في الانحدار؛ فتعلق بي هؤلاء القوم، فحملوني إليك.

فقال له المعتضد بالله وأين الحلي والسلب؟ قال: في صدر السفينة تحت السواري قال المعتضد: على به الساعة؛ فحضروا به، ثم أمر بتغريق الملاح، وأن ينادي ببغداد: من خرجت له امرأة إلى المشرعة

---

[1] يتلف: يهلك.

[2] المشرع، والمشرعة: مورد الشاربة.

[3] بلد في العراق تتوسط ما بين مجرى نهري دجلة والفرات.

الفلانية سحراً وعليها ثياب فاخرة وحلي، فليحضر. فحضر في اليوم الثاني أهلها، وأعطوا أوصافها، ووصفوا ما كان عليها من ثياب وحلي- فسلمها إليهم، قال الراوي: يا أمير المؤمنين من أعملك بأمر هذه الصبية؟ أأوحى إليك بشأنها؟ فأجاب: بل رأيت في منامي رجلاً شيخاً أبيض الرأس واللحية والثياب؛ وهو ينادي: يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه، ثم قرره على المرأة التي قتلها اليوم ظلماً، وسلبها ثيابها، وأقم عليه الحد، فكان ما شهدتم.

حسن التخلص

يحكى أن الحجاج خرج يوماً متنزهاً؛ فلما فرغ من نزهته انصرف عنه أصحابه، وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخ من بني عجل فقال له: من أين أيها الشيخ؟

قال: من هذه القرية. قال: كيف ترون عمالكم؟ قال: شر عمال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم. قال: فكيف قولك في الحجاج؟ قال الشيخ: ذاك ما ولي العراق شر منه، قبحه الله وقبح من استعمله.

فقال الحجاج: أتعرف من أنا؟

قال الشيخ: لا. قال: أنا الحجاج.

قال الشيخ: جعلت فداك أو تعرف من أنا؟

قال الحجاج: لا. فقال الشيخ: أنا فلان بن فلان. مجنون بني

عجل، أصرع في كل يوم مرتين[1].

فضحك الحجاج من حسن تخلصه وأمر له بصلة.

أبو محجن الثقفي[2]

وفد ابن أبي محجن على معاوية، فقام خطيباً فأحسن، فحسده معاوية، فقال له: أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... تـروى عظـامي بعـد مـوتي

ولا تـدفنني فـي القـلاة فـإنني ... أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

قال: بل أنا الذي يقول أبي:

لا تسـأل النـاس عـن مـالي ... وسائل القوم عن وجودي وعن

أعطـي الحسـام غـداة الـروع ... وعامـل الـرمح أرويـه مـن

وأطعـن الطعنـة الـنجلاء عـن ... وأكتم السر فيه ضربة العنق[4]

ويعلـم النـاس أنـي مـن سـراتهم ... إذا سـما بصـر الرعديـدة

فقال معاوية: أحسنت والله يا بن أبي محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

---

(1) أصرع: أصاب بالصرع: نوبة من نوبات ذهاب العقل.

(2) أبو محجن: أسلم في خلافة عمر. كان محباً للخمر، فر من سجنه واشترك في معركة القادسية فكتب للمسلمين النصر فيها بفضل بسالته.

(3) حصته: نصيبه من أجسام الأعداء، وعامل الرمح، صدره مما يلي السنان أرويه من دماء الأعداء (العلق).

(4) الطعنة النجلاء: الواسعة الغائرة. عن عرض: من غير مبالاة، والعرض والعرض: الناحية والجانب.

(5) من سراتهم؛ من أشرافهم: الرعديدة: الجبان. الفرق: الخائف الجبان.

من أخلاق المأمون

حكى القاضي يحيى بن أكثم قال: كنت نائماً ذات ليلة عند المأمونح فعطش، ولكنه امتنع أن يصيح بغلام يسقيه، وأنا نائم فينغص على نومي، فرأيته قد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى آتى موضع الماء؛ وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة، فأخذ منها كوزاً فشرب؛ ثم رجع على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا فيه فخطا خطوات خائفاً لئلا ينبهني، حتى صار في فراشه. فلما كان الصباح قال لي: كيف كان مبيتك يا أبا محمد؟

قلت: خير مبيت- جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين- قد خصك الله بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم فهناك الله بهذه النعمة، وأتمها عليك. فأمر لي بألف دينار، فأخذتها وانصرفت.

المتكلمة بالقرآن

قال عبد الله بن المبارك: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام؛ فبينما أنا في بعض الطريق، إذا بسواد، فتميزت ذاك السواد؛ فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار[1]، من صوف فقلت: السلام عليك ورحمة الله، فقالت: {سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}[2]، فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت:

---

[1] الخمار: ما يغطي الوجه.

[2] سورة يس آية ٥٨.

{مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ}[1] فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فقلت لها: أين تريدين؟ فقالت: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى}[2]، فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس فقلت لها: منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: {ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا}[3] فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين؟ قالت: {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ}[4]، فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ قالت: {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا}[5]، فقلت لها: إن معي طعاماً فهل لك في الأكل؟ قالت: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ}[6]، فقلت: ليس هذا شهر رمضان؟ قالت: {وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}[7]، فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السفر؟ قالت: {وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[8]، فقلت: لم لا تكلميني بمثل ما أكلمك؟ قالت: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[9] فقلت: من أي الناس أنت؟ قالت: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[10]، فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حل، قالت: {لا تَثْرِيبَ

---

[1] سورة الأعراف آية ١٨٦.

[2] سورة الإسراء آية ١.

[3] سورة مريم آية ١٠

[4] سورة الشعراء آية ٧٩.

[5] سورة النساء آية ٤٣.

[6] سورة البقرة آية ١٨٧.

[7] سورة البقرة آية ١٥٨.

[8] سورة البقرة آية ١٨٤.

[9] سورة (ق) آية ١٨.

[10] سورة الإسراء آية ٣٦.

عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ}[١]، فلقت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة؟ قالت: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ}[٢]، قال: فأنخت ناقتي. قالت: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ}[٣]، فغضضت بصري عنها، وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب فرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}[٤] فقلت لها: أصبري حتى أعقلها، قالت: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}[٥] فعقلت الناقة وقلت لها اركبي فلما ركبت قالت: {سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ* وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ}[٦].

قال: فأخذت بزمام الناقة، وجعلت أسرع وأصيح فقالت: {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ}[٧]. فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر فقالت: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}[٨].

فقلت لها: قد أوتيت خيراً كثيراً قالت: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ}[٩]، فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: {يَا أَيُّهَا

---

[١] يوسف آية ٩٢.

[٢] سورة البقرة آية ١٩٧.

[٣] النور ٣٠

[٤] الشورى ٣٠

[٥] الأنبياء ٧٩

[٦] الأعراف ١٤

[٧] لقمان ١٩

[٨] المزمل ٢٠

[٩] البقرة ٢٦٩

الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}[1]، فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[2]، فعلمت أن لها أولاداً، فقلت: وما شأنهم في الحج، فقالت: {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}[3]، فعلمت أنهم أدلاء الركب، فقصدت بها القباب والعمارات، فقلت: هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}[4]، {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}[5]، {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}[6]، فناديت: إبراهيم! يا موسى؟ يا يحيى!

فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقلبوا، فلما استقر بهم الجلوس قالت: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ}[7] فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي فقالت: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}[8] فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها فقالوا: هذه أمنا؛ لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن. فسبحان القادر على ما يشاء، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

[1] المائدة ١٠١

[2] الكهف ٤٦

[3] النحل ١٦

[4] النساء ١٢٥

[5] النساء ١٦٤

[6] مريم ١٢

[7] الكهف ١٩

[8] الحاقة ٢٤.

من أشد الناس حمقاً؟

حكي أن أحمقين اصطحبا في طريق فقال أحدهما: تعال: نتمن على الله، فإن الطريق تقطع بالحديث فقال أحدهما:

أنا أتمنى أن يكون لي قطعان[١] من الغنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها، وقال الآخر: أنا أتمنى أن يكون لي قطيع من الذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئاً. قال له صاحبه: ويحك! أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة؟

فتصايحا واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق[٢] ثم تراضيا على أن يحكما بينهما أول من يطلع عليهما، فطلع عليهما شيخ معه حمار، عليه زقان[٣] من عسل، فحدثاه بحديثهما؛ فنزل بالزقين، وفتحهما حتى سال العسل على التراب؛ ثم قال: صب الله دمي وأجراه مثل هذا العسل الجاري على الأرض إن لم تكونا أنما الاثنان أحمقين.

عمياء تجيد نقد الشعر

حكي أن كثير عزة كان مارا ذات يوم، فإذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي على غير هدى فقال لها: تنحي[٤] عن الطريق فقالت له: ويحك! ومن تكون؟ فقال: أنا كثير عزة:

---

(١) القطعان: جمع قطيع: الجماعة من الحيوان

(٢) الأطواق: جمع طوق: الرقبة.

(٣) الزق: إناء من فخار.

(٤) تنحي: ابتعدي

قالت له: قبحك الله، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق فقال لها: ولم؟ قالت له: ألست القائل:

وما روضة بالحزن طيبة الثرى ... يمج الندى جثجاثها وعرارها[1]

بأطيب من أردان عزة موهنا ... إذا أوقدت بالمجمر اللدن

ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها!!

هلا قلت مثل سيدك امرئ القيس:

وكنت إذا ما جئت بالليل طارقاً ... وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

فخجل كثير ولم يرد جواباً.

حماية المستجير بالنفس والولد

حكي أن الحجاج- أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة- وعذبه، واستأصل موجوده[3] وسجنه، فتوصل يزيد بحسن تلطفه إلى أن يهرب من سجنه.

وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك، فلما وصل إليه أكرمه سليمان غاية الإكرام، وأحسن إليه، وأقامه عنده. فكتب الحجاج إلى

---

[1] الحزن: ضد السهل- يمج الندى: يقذف ويرمي- الجثجات: نبات طيب الرائحة- العرار: النرجس البري، وهو نبات طيب الرائحة.

[2] الأردان: جمع ردن: وهو الجزء الواسع من الكم. (موهنا) نصف الليل- ومعناه الظر فيه- المجمر: ما يوضع فيه الجمر- والعود نفسه الذي يوضع في النار ليتطيب به.

[3] استأصل موجوده: أخذ كل ما كاد يملكه.

الوليد بن عبد الملك، يعلمه أن يزيد قد هرب من السجن؛ وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين؛ وأن أمير المؤمنين أعلى رأياً[1]

فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك. فكتب سليمان إليه يقول:

إني يا أمير المؤمنين ما أجرت يزيد بن المهاب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديماً وحديثاً،وإني لم أجر عدواً لأمير المؤمنين وقد كان الحجاج قصده وعذبه وغرمه أربعة آلاف درهم ظلماً، ثم طالبه بثلاثة آلاف درهم، وقد صار إلي، واستجار بي، فأجرته، وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة الآلاف درهم. فإن رأى أمير المؤمنين ألا يخزيني في ضيفي فليفعل فإنه أهل للفضل والكرم.

فكتب إليه الوليد: إنه لابد من أن ترسل إلى يزيد مغلولاً مقيداً. فلما ورد الكتاب على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده؛ ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعاً بغلين[2]، وأرسلهما إلى أخيه الوليد، وكتب إليه:

أما بعد يا أمير المؤمنين: فقد وجهت إليك يزيد، وابن أخيك أيوب بن سليمان؛ ولقد هممت أن أكون ثالثهما، فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد، فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله، ثم اجعل يزيد ثانياً، واجعلني إذا شئت ثالثاً والسلام!!

---

[1] أعلى رأياً: أي له الرأي الأعلى.

[2] الغل: قيد للعنق–كالقيد لليد والرجل.

فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب في سلسلة واحدة، أطرق الوليد استحياء، وقال:

لقد أسأنا إلى أبي أيوب، إذ بلغنا به هذا المبلغ[1]، فأخذ يزيد يتكلم ويحتج لنفسه. فقال له الوليد: ما تحتاج إلى هذا الكلام؛ فقد قبلنا عذرك، وعلمنا ظلم الحجاج لك.

ثم إنه أحضر حداداً، وأزال عنهما الحديد، وأحسن إليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم، ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم. وردهما إلى سليمان، وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له: لا سبيل لك على يزيد بن المهلب، فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم

فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده في أعلى المراتب، وأرفع المنازل.

من نوادر البخلاء

حكى بعضهم قال: كنت في سفر فضللك الطريق، فرأيت بيتاً في الفلاة فأتيته فإذا به أعرابية فلما رأتني قالت: من تكون؟ قلت: ضيف. قالت: أهلا ومرحبا بالضيف، انزل على الرحب والسعة فنزلت؛ فقدمت لي طعاماً فأكلت، وماء فشربت؛ فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت، فقال: من هذا؟ فقالت: ضيف فقال: لا أهلاً ولا مرحباً، مالنا وللضيف؛ فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتي وسرت؛ فلما كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة فقصدئه، فإذا فيه أعرابية، فلما رأتني قالت: من

[1] أي وصلنا به إلى هذه الدرجة من الهوان.

تكون؟ قلت: ضيف، قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف، ما لنا وللضيف؛ فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت، فلما رآني قال: من هذا؟ قالت: ضيف قال: مرحباً وأهلاً بالضيف ثم أتى بطعام حسن فأكلت، وماء فشربت؛ فتذكرت ما مر بي بالأمس فتبسمت، فقال: مم[1] تتبسم؟ فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلها [2]؛ فقال: لا تعجب! إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي، وإن بعلها أخو امرأتي، فغلب كل طبع على أهله.

حسن الوفاء وعجائب القضاء

حكى بعض خدم المأمون فقال: طلبني المأمون ليلة، وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي: خذ معك فلاناً وفلاناً وسماها– أحدهما محمد بن علي والآخر دينار الخدم– واذهب مسرعاً لما أقول لك؛ فإنه قد بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً دور البرامكة وينشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيراً ويندبهم[3] ويبكي عليهم، ثم ينصرف.

فأمض الآن أنت وعلي ودينار حتى تردا هذه الخربات فاستتر في بعض الجدران، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئاً فائتوني به. قال: فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخربات[4]، وإذا نحن

---

[1] مم: من أي شيء..

[2] البعل: الزوج.

[3] يندبهم: ندب الميت بكاه وعدد مآثره.

[4] الخربات: ج خربة. الدار المهدمة.

بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي جديد، وإذا بشيخ وسيم[1] له جمال وعليه مهابة ووقار، قد أقبل فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب[2] ويقول:

ولما رأيت السيف جندل[3]	ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي	عليهم وقلت: الآن لا تنفع

مع أبيات أطاها ورددها، فلما قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين فزع فزعاً شديداً، وقال: دعوني أوصي وصية؛ فإني لا أوقن بعدها بحياة؛ ثم تقدم إلى بعض الدكاكين، فاستفتح، وأخذ ورقة، وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه؛ ثم سرنا به؛ فلما مثل بين يدي المأمون زجره[4] وقال له: من أنت؟ وبماذا استوجبت منك البرامكة ما تفعله في خرائب دورهم؟ وما تقوله فيها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن للبرامكة عندي أيادي[5] خطيرة، أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم؟ قال: قل. فقال: يا أمير المؤمنين، أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك وقد زالت عني نعمتي، كما تزول عن الرجال؛ فلما ركبني[6] الدين واحتجت إلى بيع مسقط[7] رأسي، أشار على رءوس أهلي بالخروج إلى البرامكة، فخرجت

---

[1] وسيم: حسن الوجه.

[2] ينتحب: يبكي بصوت عال.

[3] جندل: رماه على الصخر قتيلاً: قتله.

[4] زجره: أهانه وشتمه.

[5] أيادي: المراد: إحسانهم وجودهم وبرهم به.

[6] ركبني الدين: كثرت ديوني حتى لم أستطع أداءها.

[7] مسقط رأسي: المكان الذي ولد ونشأ به.

من دمشق، ومعي نيف[1] وثلاثون امرأة وصبياً وصبية؛ وليس معنا ما يباع ولا ما توهب حتى دخلنا بغداد، ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت بثويبات[2] لي قد أعددتها لأستمنح[3] بها الناس فلبستها، وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة؛ فإذا أنا بمسجد مزخرف، وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلى الباب خادمان فطمعت في القوم وولجت المسجد[4] وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر[5] والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد، ودخلت معهم؛ وإذا غلام أمرد قد عذر خداه[6] أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون، في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال[7]، ومع كل خادم مجمرة من ذهب، في كل مجمرة[8] قطعة من عود كهيئة[9] الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام إلى جنب يحيى؛ ثم قال يحيى للقاضي: تكلم وزوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا؛ فخطب القاضي

---

[1] نيف: كناية عن العدد ما بين الثلاثة إلى السبعة أو العشرة.

[2] ثويبات: ج ثويب: تصغير ثوب.

[3] استمنح: طلب المنحة والعطاء.

[4] ولج المسجد: دخله.

[5] أقدم وأؤخر: كناية عن التردد والتحير.

[6] عذر خداه: ظهر الشعر في عذاره.

[7] المثقال: وزنه درهم ونصف.

[8] مجمرة: إناء يوضع فيه الجمر.

[9] العود: خشب طيب الرائحة، والفهر: حجر ملء الكف

وزوجه وشهد الجماعة الحاضرون؛ وأقبلوا علينا بالنثار[1] ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي، ونظرت فإذا نحن في المكان، ما بيني وبين المشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلاً؛ فخرج لنا مائة واثنا عشر خادماً؛ مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار فوضعوا بين يدي كل رجل منا، صينية؛ فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم، ويجعلون الصواني تحت أباطهم، ويقومون الأول فالأول حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر[2] على أخذ الصينية؛ فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي وأخذت الصينية في يدي؛ وجعلت ألتفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب.

فبينما أنا كذلك في صحن[3] الدار ويحيى يلحظني إذ قال للغلام: ائتني بذلك الرجل فردت إليه، فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي؛ ثم أمرني بالجلوس فجلست فقال: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتي فقال للخادم: ائتني بولدي موسى؛ فأتى به فقال: يا بني هذا رجل غريب فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك[4]

فقبض موسى على يدي، وأدخلني إلى دار من دوره، فأكرمني غاية الإكرام، وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش وأتم سرور فلما أصبح

---

[1] النثار: ما ينثر في العرس على الحاضرين.

[2] أجسر: أجرؤ.

[3] صحن الدار: وسطها.

[4] بنعمتك: أي أكرمه ما وسعك الكرم.

دعا بأخيه العباس وقال: إن الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين. فأقبضه[١] إليك وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام؛ فلما كان من الغد تسلمني أخوه، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام، لا أعرف خير عيالي وصبياني، أفي الأموات هم أم في الأحياء؟

فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا: قم فاخرج إلى عيالك بسلام، فقلت: واويلاه!! سلبت الدنانير والصينية سأخرج إلى عيالي على هذه الحالة؟ إنا لله وإنا إليه راجعون!

فرفع الستر الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال: مهما كان لك من حوائج فارفعها إلى فأني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به.

فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحة الند والعود[٢] ونفحات المسك؛ وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج[٣] وحمل إلى ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار، ومنشورين بضيعتين وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق. وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس: أمن البرامكة أنا، أم رجل غريب اصطفوني[٤]؟

---

[١] اقبضه: خذه معك.

[٢] الند والعود: أخشاب طيبة الرائحة.

[٣] الديباج: الأثواب سداها ولحمتها من الحرير الخالص.

[٤] اصطفوني: اختاروني صفياً وصديقاً.

فلما جاءت البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل اجحفني[1] عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل[2] الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خربات القوم فأند بهم وأذكر حسن صنيعهم إلى وأشكرهم على إحسانهم.

فقال المأمون: على بعمرو بن مسعدة، فلما أتى به قال له: يا عمرو أتعرف هذا الرجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة. قال: كم ألزمته[3] في ضيعتيه؟ قال: كذا وكذا قال له: رد له كل ما استأديته[4] منه في مدته، ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده. فعلا نحيب[5] الرجل وبكاؤه.

فلما رأى المأمون كثرة بكائه. قال: يا هذا قد أحسنا إليك فلم تبكي؟ قال: يا أمير المؤمنين، وهذا من صنائع البرامكة لو لم آت خرباتهم وأند بهم حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين ففعل بي ما فعل؛ فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟! فدمعت عينا المأمون وظهر عليه التأثر والحزن.

---

[1] أجحفني: ظلمني في الخراج وأخذ مني ما لا أستطيع أداءه.

[2] تحامل على الدهر: اشتدت قسوته علي.

[3] ألزمته: أوجبت عليه وفرضته.

[4] استأديته: طلبت لنه أداءه في المدة السابقة.

[5] النحيب: رفع الصوت بالبكاء.

على الباغي تدور الدوائر

حكي أن أحمد بن طولون وجد عند سقاية[1] طفلاً مطروحاً فالتقطه ورباه وسماه أحمد، وشهره[2] باليتيم؛ فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة، وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه ويعلمه؛ حتى تهذب وتمرن.

فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة، أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به فأخذه إليه. فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش وقال له: أنت عندي بمكانة أرعاك بها، ولكن عادتي أني آخذ العهد على كل أحد أعرفه ألا يخونني في شيء؛ فعاهده وحكمه في أمواله وقدمه في أشغاله؛ فصار أحمد اليتيم مستحوذاً[3] على المقام، حاكماً على جميع الحاشية الخاص والعام. والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه؛ فلما رأى أحواله متصفة بالنصح؛ ومساعيه متسمة[4] بالنجح، ركن إليه[5] واعتمد في أمور بيوته عليه؛ فقال له يوماً: يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية، ففي المجلس حيث كنت جالساً تجد سبحة جوهر، فأتني بها؛ فمضى أحمد، ولما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه[6] مع شاب من الفراشين، ممن هم من الأمير

---

(1) سقاية: مكان السقى.

(2) شهره: جعل شهرته- عرفه.

(3) مستحوذاً: مستولياً، مسيطراً.

(4) متسمة: متصفة (السمة: العلامة).

(5) ركن إليه: مال إليه واعتمد عليه.

(6) حظاياه: ج حظية: (المعشوقة)

بمحل قريب؛ فلما رأياه خرج الفتى وجاءته الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه[١]؛ فقال لها: معاذ الله[٢] أن أخون الأمير وقد أحسن إلي وأخذ العهد علي، ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه؛ وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة وخرج من الحجرة؛ لئلا يذكر حالها للأمير.

فأقامت أياماً لم تجد من الأمير ما غيره عليها؛ ثم اتفق أن اشترى الأمير جارية وقدمها على حظاياه، وغمرها[٣] بعطاياه، واشتغل بها عمن سواها، وأعرض عن كل من عنده، حتى كاد لا يذكر جارية غيرها؛ وقد كان من قبل مشغوفاً[٤] بتلك الجارية الخائنة؛ فلما أعرض عنها اشتغالاً بالجارية الجديدة- لبهجة محاسنها وكثرة آدابها- كبر عليها إعراضه عنها ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم، لإطلاعه على ما كان منها، فدخلت على الأمير باكية منتحبة لإتمام كيدها ومكرها وقالت: إن أحمد اليتيم راودني عن نفسي؛ فلما سمع الأمير ذلك استشاط[٥] غضباً وهم في الحال بقتله، ثم عاوده في الحال حاكم عقله، فتأنى في فعله، واستحضر خادماً يعتمد عليه وقال له: إذا أرسلت إليك إنساناً ومعه طبق من ذهب وقلت لك على لسانه: أملأ هذا الطبق مسكاً، فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق، وأحضره مغطى؛ ثم إن الأمير أبا الجيش جلس

---

[١] عرضت نفسها عليه: راودته عن نفسه.

[٢] معاذ الله: أعوذ بالله وألتجئ إليه واحتمى به.

[٣] غمرها: أفاض عليها.

[٤] مشفوفاً: مفتوناً

[٥] استشاط: التهب.

لشربه، وأحضر عنده ندماءه الخواص، وأدناهم لمجلس قربه، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سر به لم يخطر بخاطره شيء، فلما مثل بين يدي الأمير، وقد أخذ منه الشراب، شرع في التذكر فقال: يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم وقل له: يقول لك الأمير: أملأ هذا الطبق مسكاً.

فأخذه أحمد اليتيم ومضى فاجتاز[1]، في طريقه بالمغنين وبقية الندماء والخواص، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم.

فقال لهم: أنا ماض في حاجة الأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق، فقالوا: أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وادخل بها على الأمير؛ فأدار عينه فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية، فأعطاه الطبق، وقال له: امض إلى فلان الخادم، وقل له: يقول لك الأمير: أملأ هذا الطبق مسكاً؛ فمضى ذلك الفراش إلى الخادم فذكر له ذلك، فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله في الق وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم، فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر؛ فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله، وقال: ما هذا؟! فقص عليه أحمد اليتيم القصة، وأنه قعد مع المغنيين وبقية الندماء، وأنهم سألوه الجلوس معهم وإرسال الطبق مع الفراش؛ وأنه لا علم عنده غير ما ذكر.

قال: أتعرف لهذا الفراش خبراً يستوجب به ما جرى عليه؟ فقال: أيها الأمير إن الذي تم عليه بسبب ما ارتكبه من الخيانة؛ وقد كنت رأيت

---

[1] اجتاز: مر.

الإعراض عن إعلام الأمير بذلك. وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره، لما أنفذه[1]، لإحضار السبحة الجوهر.

فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية، واستقررها[2]، فأقرت بصحة ما ذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها، ففعل وازدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته لديه، وضاعف إحسانه إليه وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بين يديه.

قصة الأموي مع المأمون

حكى العباس صاحب شرطة المأمون قال:

دخلت يوماً إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد، ومن بين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما رآني قال لي: يا عباس. قلت: لبيك[3] يا أمير المؤمنين، قال: خذ هذا الرجل فاستوثق منه واحتفظ به وبكر به إلي في غد، واحترز[4] عليه كل الاحتراز.

قال العباس: فدعوت جماعة فحملوه، ولم يقدر أن يتحرك فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي، فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري، ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو؟

---

[1] أنفذه: أرسله.

[2] استقررها: جعلها تقر وتعترف.

[3] لبيك: إجابة لك بعد إجابة.

[4] احترز عليه: تحفظ عليه كل التحفظ.

فقال من دمشق. فقلت: جزى الله دمشق وأهلها خيراً. فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلاناً قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت وقع لي معه قصة. فقال: ما كنت بالذي يعرفك خبره حتى تعرفني قصتك معه، فقال: كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها وخرجوا[١] علينا؛ حتى أن الوالي تدلي في زنبيل[٢] من قصره وهرب هو وأصحابه، وهربت في جملة القوم.

فبينما أنا هارب في بعض الدروب؛ وإذا بجماعة يعدون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالس على باب داره فقلت: أغثني أغاثك الله!! قال: لا بأس عليك: ادخل الدار. فدخلت. فقالت زوجته: ادخل تلك المقصورة[٣] فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار؛ فما شعرت إلا وقد دخل الرجال معه يقولون: هو والله عندك! فقال: دونكم الدار فتشوها، ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها، فقالوا: ههنا؛ فصاحت بهم المرأة ونهرتهم[٤] فانصرفوا، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف، ما تحملني رجلاي من شدة الخوف، فقالت المرأة: أجلس لا بأس عليك، فجلست، فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال: لا تخف، صرف الله عنك شرهم، وصرت إلى الأمن والدعة[٥] إن شاء الله تعالى،

---

[١] خرجوا علينا: ثاروا بنا: أحدثوا ثورة.

[٢] الزنبيل: القفة.

[٣] المقصورة: الحجرة الخاصة من الدار.

[٤] نهرتهم: زجرتهم.

[٥] الدعة: السكون والراحة.

فقلت له: جزاك الله خيراً.

فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها؛ وأفرد لي مكاناً[1] في داره، ولم يحوجني إلى شيء، ولم يفتر عن تفقد أحوالي فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني، فلعلي أقف منهم على خبر، فأخذ على المواثيق[2] بالرجوع، فخرجت وطلبت غلماني، فلم أر لهم أثراً، فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع ذلك كله لا يعرفني ولا يسألني ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية[3] فقال لي: علام تعزم؟

فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد، فقال: إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج. فقلت له: إنك قد تفضلت على هذه المدة ولك على عهد الله أني لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينك ما استطعت، قال: فدعا غلاماً له أسود وقال له: أسرج الفرس الفلاني، ثم جهز آلة السفر فقلت في نفسي: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي.

فلما كان في يوم خروج القافلة. جاءني في السحر[4] وقال لي:

قم فإن القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها فقلت في نفسي:

---

[1] أفرد: خصص.

[2] المواثيق: العهود.

[3] الكنية: أن يقول له يا أبا فلان.

[4] السحر: قبيل الصبح.

كيف أصنع وليس معي ما أتزود به، ولا ما أكرى به مركوبا[1]؛ ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان بقجة[2] من أفخر الملابس، وخفين جديدين، وآلة السفر؛ ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي، ثم قدم بغلاً فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ورفع إلى نسخة ما في الصندوقين؛ وفيهما خمسة آلاف درهم، ثم قدم إلى الفرس الذي كان جهزه.

وقال: اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك، ويسوس مركوبك، وأقبل هو وامرأته يعتذران إلى من التقصير في أمري. وركب معي يشيعني. وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته. واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره؛ فلهذا أنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك[3] ولا مئونة تلزمك. فقلت: وكيف ذلك؟

قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضر الذي أنا فيه غير حالي عليك وما كنت تعرفه مني؛ ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ثم قلت له: فما الذي آل بك[4] إلى ما أرى؟

---

[1] بقجة: الصرة من الثياب.

[2] مركوباً: أي دابة تركب.

[3] كلفة: مشقة.

[4] آل بك: صار بك.

فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك، فنسبت إلي، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد، وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت، وقيدت، وبعث بي إلى أمير المؤمنين. وأمري عنده عظيم وخطبي لدي جسيم، وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري؛ وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره حتى أوصيه بما أريد. فإذا أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة، وقمت لي بوفاء عهدك. قال العباس: يصنع الله خيراً، ثم أحضر حداداً في الليل فك قيوده وأزال ما كان فيه من الأنكال[1]، وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه.

ثم أرسل من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه ثم استدعى نائبه وقال: علي بالفرس الفلاني والبغلة الفلانية حتى عد عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا، ومن الطعام كذا وكذا.

قال ذلك الرجل: وأحضر لي بدرة بها عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار، وقال لنائبه في الشرط[2]؛ خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار[3].

فقلت: إن ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم وخطبي جسيم وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه

---

[1] الأنكال: ج نكل: القيد الشديد.

[2] الشرط: العسس (البوليس)

[3] بلد بالقرب من بغداد على نهر الفرات.

فأرادوا قتلي.

فقال: انج بنفسك ودعني أدبر أمري، فقلت: والله لا أبرح[1]، من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك؛ فإن احتجت إلى حضوري حضرت؛ فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا، فإن أنا سلمت غداة غد أعلمته؛ وإن قتلت فقد وقيته بنفسي، كما وقاني بنفسه وأنشدك الله[2]، ألا يذهب من ماله درهم، وتجتهد في إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصبرني في مكان وثق به، وتفرغ العباس لنفسه، وتحفظ وجهز له كفناً، فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا ورسل المأمون في طلبي يقولون: يقول اك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم، قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين؛ فإذا هو جالس عليه ثيابه وهو ينتظرني فقال: أين الرجل؟ فسكت. فقال: ويحك[3]؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني فقال: لله علي عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب؛ ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شأنك وما تريد أن تفعله في أمري، فقال: قل، فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثه معي كيت وكيت، وقصصت عليه القصة جميعها، وعرفته أني أريد أن أفي وأكافئه على ما فعله معي وقلت: أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين؛ إما أن يصفح عني فأكون قد

---

[1] لا أبرح: لن أفارق بغداد.

[2] أنشدك الله: لبالك الله.

[3] ويحك: معناها هنا: ويلك.

وفيت وكافأت؛ وإما أن يقتلني فأفيه بنفسي، وقد تحنطت[1] وها هو كفني يا أمير المؤمنين. فلما سمع المأمون الحديث كله قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً؛ إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وأما أنت فتكافئه بعد المعرفة، هلا عرفتني[2] خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف ألا يبرح بغداد حتى ويعرف سلامتي، فإن احتجت إلى حضوره حضر قال المأمون: وهذه منة أعظم من الأولى، اذهب الآن إليه فطيب نفسه وسكن روعه[3] وائتني به حتى أتولى مكافأته؛ قال العباس فأتيت إليه وقلت له، ليزل خوفك، إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت، فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء[4] والضراء سواه، ثم قام وأقبل عليه وأدناه منه وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفي فأمر له المأمون بأموال كثيرة ومماليك بدوابهم وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به وإطلاق خراجه وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق؛ فصارت كتبه تصل إلى المأمون؛ وكلما وصل البريد وفيه كتاب منه يقول لي: يا عباس هذا كتاب صديقك.

معروف الآباء ينتفع به الأبناء

حكى سوار جليس الخليفة المهدي، فقال:

---

[1] تحطنت: جئت بالحنوط، وهو ما يوضع على جثة الميت ليمنع فسادها.

[2] هلا عرفتني: ليتك عرفتني: لماذا لم تعرفني؟

[3] سكن روعه: أزل خوفه.

[4] السراء: المسرة ورغد العيش.

انصرفت يوماً من دار الخليفة المهدي؛ فلما دخلت منزلي دعوت بالطعام فلم تقبله نفسي؛ فأمرت به فرفع ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها، وأشتغل بها فلم تطيب نفسي.

ثم دخل وقت القائلة[1]، فلم يأخذني النوم؛ فنهضت وأمرت ببغلة لي فأسرجت، فركبتها فلما خرجت من المنزل استقبلني وكيل لي، ومعه مال. فقلت: ما هذا؟

فقال: ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد[2]

قلت: أمسكها معك وأتبعني، وأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر. ثم مضيت في شارع الرقيق، حتى انتهيت إلى الصحراء؛ ثم رجعت إلى باب الانبار، وانتهيت إلى باب دار نظيفة، عليه شجرة، وعلى الباب خادم، فعطشت.

فقلت للخادم: أعندك ماء تسقينيه؟

قال: نعم!

ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولتني، فشربت، وحضر وقت العصر، فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه. فلما قضيت صلاتي، إذ أعمى يتلمس[3] فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد. قلت: فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبي وقال:

---

[1] القائلة: نصف النهار، وقت الظهيرة.

[2] المستغل: الضيعة المستغلة.

[3] يتلمس: يتحسس طريقه بيده أو بعصا.

شممت منك رائحة طيبة، فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشيء فقلت: نعم. قال: هذا قصر كان لأبي فباعه وخرج إلى خراسان[1] فخرجت معه، فزالت عنا النعم التي كنا فيها وعميت، فقدمت هذه المدينة، وأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئاً يصلني به، وأتوصل إلى سوار فانه كان صديقاً لأبي. فقلت: ومن أبوك؟

فقال: فلان ابن فلان، فعرفته، فإذا هو من أصدق الناس لي. فقلت: يا هذا إن الله قد أتاك بسوار حيث أنت؛ منعه من الطعام والنوم والقرار[2] حتى جاء به إليك فأقعده بين يديك. ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه ودفعتها إلى الرجل؛ ثم قلت له:

إذا كان الغد[3] فسر إلى منزلي، ثم مضيت. وقلت في نفسي ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أطرف من هذا. فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي، فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لي، فأعجبه ذلك وأمر لي بألفي دينار فأحضرت. فقال: ادفعها إلى الأعمى. فلما جاءني الأعمى دفعت إليه صلة أمير المؤمنين وشيئاً آخر من مالي وقلت له:

لقد ساق الله الرزق إليك، بسبب ما قدمه أبوك من معروف للناس فأحمد الله على ما أعطاك.

---

[1] خراسان: ولاية ببلاد فارس.

[2] القرار: السكون.

[3] إذا كان الغد: إذا جاء الغد.

من حفر بئراً لأخيه

حكي أن رجلاً من العرب قدم على المعتصم فقربه إليه وأدناه منه، واتخذه جليساً ونديماً. وصار يدخل على حريمه من غير استئذان. وكان للمعتصم وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه: إن لم أحتل على قتل هذا البدوي– أخذ بقلب أمير المؤمنين، وأبعدني عنه فصار يتلطف إلى البدوي حتى استضافه في منزل وطبخ له طعاماً، وأكثر فيه من الثوم فلما أكل البدوي منه قال له: احذر أن تقرب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم فإنه يتأذى منه ويكره رائحته. ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين، فخلا به وقال له: يا أمير المؤمنين: إن هذا البدوي يقول عنك للناس أنك أبخر[1] وأن نفسه تضيق من رائحتك. فلما دخل البدوي على المعتصم جعل كمه على فمه، مخافة أن يشم رائحة الثوم.

فلما رآه المعتصم على تلك الحال صدق قول وزيره فيه فكتب كتاباً إلى بعض عماله يقول له فيه.

إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله. ثم دعا بالبدوي، ودفع إليه الكتاب، وقال له: امض به إلى فلان، وائتني بالجواب فامتثل[2] البدوي ما أمر أمير المؤمنين، وأخذ الكتاب وخرج من عنده فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير. فقال له:

---

[1] البخر: تغير ريح الفم.

[2] امتثل: أطاع ونفذ.

أين تريد؟

قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان. فقال الوزير في نفسه: لا بد أن أمير المؤمنين قد كتب لهذا البدوي بمال كثير يأخذه من عند هذا العامل.

فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار؟

فقال له البدوي: شأنك وما تريد، ثم دفع إليه الكتاب وأخذ منه ألفي دينار. وتوجه الوزير بنفسه إلى عامل الخليفة؛ فلما قرأ العامل الكتاب، أمر بضرب رقبة الوزير

وبعد أيام تذكر الخليفة أمر البدوي، فأخبر أنه بالمدينة وسأل عن الوزير فأخبر أنه ذهب إلى العامل فلان ولم يرجع

فأمر بإحضار البدوي فحضر، وسأله عن حاله، فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها

فقال الخليفة: ألم تقل للناس عني إنني أبحر؟

فقال البدوي: معاذ الله أن أقول ما ليس لي به علم إنما كان ذلك مكراً من الوزير وحسداً، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه

فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد! ما أعدله، بدأ بصاحبه!! ثم اتخذ البدوي وزيراً، بعد أن ذهب الوزير الذي قتله الحسد والغدر

شرب الدخان

يحكى أن شهاب الدين الخفاجي المصري شرب الدخان هو وجماعة، فاعترض عليهم شيخي زاده فكتب له الشهاب بقوله:

إذا شـرب الـدخان فـلا تلمنـا	وجد بالعفو يا روض الأماني[1]
تريــد مهــذباً لا عيــب فيــه	وهـل عـود يفـوح بـلا دخـان[2]

فأجابه شيخي أفندي بقوله:

إذا شـرب الـدخان فـلا تلمنـي	علــى لــومي لأبنــاء الزمــان
أريـد مهـذباً مـن غيـر ذنـب	كــريح المســك فــاح بــلا

مداعبة مخرجة وفراسة صادقة

يحكى أن أحد أمراء العرب كان عنده جماعة من أجلاء خاصته، فقام متوجهاً إلى موضع الطهارة ثم عاد وهو قابض بيده على شيء تحت ثوبه، كهيئة المستبرئ[4] من البول، ثم دخل على الجماعة وهو على تلك الصفة وقال يخاطبهم:

من منكم يأخذ الذي بيدي إلى زوجته؟! فأطرق القوم خجلاً واستنكاراً. إلا واحداً منهم فإنه قال: زوجتي أولى به يا أمير العرب؛

---

[1] جد بالعفو: سامحنا

[2] إن مثل الشخص الذي لا عيب كمثل الذي تفوح رائحته الطيبة من غير دخان- كلاهما لا وجود له.

[3] إن مثل المهذب الذي لا عيب فيه ولا ذنب يرتكبه مثل المسك الذي تفوح رائحته الطيبة من غير دخان- كلاهما موجود.

[4] المستبرئ من البول: الذي تخلص منه.

فأطلق الأمير يده. وقال: هو لك فخذه؛ وإذا هو عقد من الجواهر فبهت القوم، وحسدوا الرجل، ثم قال الأمير للرجل: ما الذي أجرأك[1] على ذلك؟ قال ثقتي أنه لا يظهر منك إلا الكمال–فدفع له ألف دينار مكافأة له على صدق فراسته وحسن ظنه.

ذات الخمار الأسود

قدم تاجر إلى المدينة يحمل من العراق خمراً[2]، فباع الجميع إلا الخمر السوداء، فشكا إلى الدارمي[3] كساد سوقها.

وكان الدارمي قد تنسك[4]، وتعبد، فعمل بيتين؛ وأعطاهما للتاجر وقال له: عليك بمن يغنيهما في المدينة، وهما:

قل للمليحة في الخمار الأسود ... مـاذا فعلـت بزاهـد متعبـد؟

قـد كـان شـمر للعبـادة ذيلـه[5] ... حتى وقفت له بباب المسجد

فشاع الخبر في المدينة أن الدرامي قد رجع عن زهده، وتعشق صاحبة الخمار الأسود؛ فلم تبق في المدينة مليحة إلا اشترت لها خماراً أسود، فلما باع التاجر جميع ما معه من الخمر السود، رجع الدرامي إلى تعبده وعمد إلى لباس نسكه فلبسها.

---

(1) أجرأك: جرأك.

(2) الخمر: ج خمار: وهو ما يغطي به الوجه.

(3) الدارمي: شاعر من شعراء القرن الثاني الهجري اشتهر بشعره في الغزل والهجاء ثم تنسك في أواخر حياته.

(4) تنسك: انقطع للعبادة زاهداً في الدنيا.

(5) كناية عن جده وإقباله على العبادة.

من مكارم الأخلاق

حكي أن رجلاً زور. ورقة عن خط الفضل بن الربيع تتضمن أنه أطلق له[1]، ألف دينار؛ ثم جاء بها إلى وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها، لم يشك أنها خط الفضل، فشرع في أن يقدم للرجل ألف الدينار.

وإذا الفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر هام. فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل، ووقفة على الورقة؛ فنظر الفضل فيها، ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل فأطرق الفضل برأسه، ثم قال للوكيل:

أتدري لم أتيتك في هذا الوقت؟

قال: لا. قال: جئت لأستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة.

فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال، وناوله للرجل فقبضه وصار متحيراً في أمره، فالتفت إليه الفضل وقال له: طب نفساً: فقال له الرجل: سترتني، سترك الله في الدنيا والآخرة؛ ثم أخذ المال ومضى.

---

[1] أطلق له: أمر له.

صورة شيطان

حكى الجاحظ[1] قال:

ما أخجلني قط إلا امرأة مرت بي فقادتني إلى صائغ فلما وقفت عليه قالت له: اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتاً[2]، ثم سألت الصائغ عن معنى قول هذه المرأة.

فقال الصائغ إن هذه المرأة طلبت مني أن أعمل لها صورة شيطان فقلت لها: لا أدري كيف أصوره فإني لم أر شيطاناً من قبل.

فذهبت وأتت بك، وقالت: اعمل الصورة على مثال هذا وأشارت إليك.

وفي الجاحظ يقول الشاعر:

لو يسمخ الخنزير مسخاً ثانياً ... ما كان إلا دون قبح الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بوجهه ... وهو القذى في عين كل

الفرج بعد الشدة

قال مسلم بن الوليد[3]: كنت جالساً يوماً أمام منزلي، فمر إنسان أعرفه فقمت إليه، وسلمت عليه، وأدخلته منزلي لأضيفه وليس معي

---

(1) هو أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكناني البصري من أئمة العلم، وكان له علم بكل نواحي المعرفة والعلوم الإسلامية مع امتياز بمذهب المعتزلة والأدب توفي في سنة ٢٥٥هـ.

(2) مبهوتاً: متحيراً.

(3) هو صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري، تأدب بالكوفة ونبه شأنه في الشعر حتى صار من متقدمي عصره؛ وهو من متكلفي البديع. توفي بجرجان سنة ٢٠٨هـ.

درهم؛ بل كان عندي زوج أخفاف، فأرسلتهما مع جاريتي فباعتهما بتسعة دراهم، واشترت بها ما قلته لها من الخبز واللحم، فجلسنا نأكل. وإذا الباب يطرق فنظرت من شق الباب وإذ إنسان يسأل:

هذا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت فقال لي:

أنت مسلم بن الوليد؟

قلت نعم: واستشهدت بالضيف، فأخرج لي كتاباً وقال: هذا من عند الأمير يزيد بن مزيد، فإذا فيه:

قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون في منزلك، وثلاثة آلاف تتجمل بها لقدومك علينا. فأدخلته داري، وزدت في الطعام واشتريت فاكهة وجلسنا نأكل، ثم وهبت ضيفي شيئاً يشتري به هدية لأهله وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة؛ فلما دخلت سلمت عليه فرد أحسن رد وقال: ما الذي أقعدك[1] عنا؟

قلت: قلة ذات اليد[2]، وأنشدته قصيدة مدحته بها قال: أتدري لم أحضرتك؟ قلت: لا أدري قال: كنت عند الرشيد منذ ليال أحادثه فقال لي: يا يزيد من القائل فيك هذه الأبيات

سل الخليفة سيفاً من بني مطر   يمضـــي فيختـــرق الأجســـام

---

[1] أقعدك: آخرك.

[2] قلة ذات اليد: قلة المال في يدي.

[3] الهام: الرأس.

كالدهر لا ينثني عما يهم به   قد أوسع الناس إنعاماً

فقلت: والله لا أدري يا أمير المؤمنين.

فقال: سبحان الله! أيقال فيك مثل هذا ولا تدري من قاله؟ فسألت، فقيل لي: هو مسلم بن الوليد، فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد، فسرنا إليه، واستؤذن لنا، فدخلنا عليه (فقبلنا الأرض)، وسلمت فرد على السلام؛ فأنشدته ما لي فيه من شعر؛ فأمر لي بمائتي ألف درهم، وأمر ليزيد بمائة وتسعين ألفاً؛ وقال: ما ينبغي لي أن أساوي أمير المؤمنين في العطاء. والحمد لله أولاً وآخراً

زوجة أبي العباس السَّفّاح

كانت أم سلمة بنت يعقوب بن عبد الله المخزومي زوجة للسفاح، وكان يحبها حباً شديداً، وتقع من قلبه موقعاً عظيماً فحلف لها يوماً ألا يتخذ عليها سرية(٢)، ولا يتزوج عليها امرأة أخرى ووفى لها بذلك.

وفي أحد الأيام خلا به خالد بن صفوان وقال له:

يا أمير المؤمنين. لقد فكرت في أمرك وسعة ملكك، وأنك قد ملكت نفسك امرأة واقتصرت عليها؛ فإذا مرضت مرضت، وإذا حاضت حضت؛ وحرمت نفسك التلذذ بالسراري[٣] واستظراف الجواري، ومعرفة اختلاف حالاتهن وأجناسهن للتمتع بما تشتهي منهن؛

---

[١] ارغاماً: إذلالاً.

[٢] السرية: الخطية: المعشوقة المحبوبة.

[٣] السراري: جمع سرية.

فمنهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء[1]، والعنيقة الأدماء[2]، والزهوة السمراء، والمولدات[3]، المفتنات اللواتي يفتن بحلاوتهن ولو رأيت يا أمير المؤمنين السمراء واللعساء[4]، من مولدات البصرة والكوفة، وذوات الألس العذبة، والقدود المهفهفة[5]، والأوساط المخصرة[6]، والثدي النواهد المحققة[7]، وحسن زيهن وشكلهن لرأيت فتناً ومنظراً حسناً وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الأحرار، والنظر إلى ما عندهن من الحياء والتخفر والدلال والتعطر[8]؟!

ولم يزل خالد يجيد في الوصف ويكثر في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة كلامه.

فلما فرغ قال له أبو العباس: ويحك والله ما سلك مسامعي قط كلام أحسن مما سمعته، فأعده علي فزاد فيه ثم انصرف خالد وبقى العباس مفكراً مغموماً؛ فدخلت عليه أم سلمه، وكانت تبره كثيراً وتتحرى مسرته وموافقته في جميع ما أراده؛ فقال له: مالي أراك مغموماً يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمر تكرهه، أو أتاك أمر ارتعت له؟[9]، قال: لم

---

[1] الغيداء: الناعمة المتثنية.

[2] العتيقة: ذات العنق الطويل، والادماء السمراء.

[3] المولدات: المختلطات الأجناس.

[4] اللساء: اللعس: سواد مستحسن

[5] القدود المهفهفة: الرشيقة المتمايلة.

[6] المخصرة: ذات الخصر الجميل.

[7] المحققة: الثدي البارزة كأنها الحقاق: ج حق.

[8] التخفر: الحياء والخجل، والدلال: والتمتع.

[9] ارتعت له: انزعجت منه.

يكن شيء من ذلك. قالت: فما قصتك؟ فجعل يكتم عنها، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد قالت: فما قلت لهذا الأحمق؟

قال: سبحان الله ينصحني وتشتمينه؛ فخرجت من عنده وأرسلت إلى خالد عبيداً، وأمرتهم بضربه والتنكيل[1]، به. قال خالد: وانصرفت إلى منزلي مسروراً بما رأيت من إصغاء أمير المؤمنين إلى كلامي وإعجابه بما ألقيت إليه وأنا لا أشك في الصلة.

فلم ألبث أن جاء العبيد فلما رأيتهم أقلبوا نحوي أيقنت بالجائزة، فوقفوا علي وسألوا عني فعرفتهم نفسي فأهوى[2] إلى أحدهم بعمود كان في يده فبادرت إلى الدار وأغلقت الباب، ومكثت أياماً لا أخرج من منزلي، وطلبني أمير المؤمنين، فأيقنت بالموت، وقلت: لم أر دم شيخ أضيع من دمي، وركبت فلم أصل إلى الدار حتى استقبلني عدة رسل؛ فدخلت على أمير المؤمنين فوجدته جالساً، فأومأ إلي بالجلوس، فثاب إلى عقلي. وفي المجلس باب عليه ستور قد أرخيت، وخلفه حركة؛ فقال لي: يا خالد منذ ثلاث لم أرك. قلت: كنت عليلاً يا أمير المؤمنين.

قال: إنك قد وصفت لي في آخر مرة كنت بها معناً من أمر النساء والجواري ما لم يطرق سمعي قط كلام أحسن منه، فأعده على قال: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسم الضرة[3] من الضرر؛ وأن أحداً لم يكن عنده امرأتان إلا كان في ضرر وتنغيص، قال:

---

[1] التنكيل به: نكل به: عذبه، وجعله موعظة وعبرة لغيره.

[2] أهوى بيده: رفع يده ليضرب بها.

[3] الضرة: شريكة الزوجة في زوجها.

ويحك لم يكن هذا في حديثك! قلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن الثلاث من النساء كأثافي[1] القدر تغلي عليها أبداً؛ وإن الأربع شر مجموع لصاحبه يمرضنه ويسقمنه ويضعفنه؛ وأن أبكار الإماء رجال ولكن لا خصني لهن فقال أبو العباس: برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما سمعت منك من هذا شيئاً قط.

قال خالد: بلى والله يا أمير المؤمنين، وعرفتك أن بني مخزوم ريحانة قريش، وأن عندك ريحانة الرياحين، وأنت تطمح بعينك إلى الإماء والسراري، فقال أبو العباس ويحك أتكذبني؟ فأجاب: أفتقتلني يا أمير المؤمنين؟ قال خالد: فسمعت ضحكاً من وراء الستر، وقائلاً يقول:

صدقت والله يا عماه!! هذا الذي حدثته، ولكنه بدل وغير ونطق على لسانك بما لم تنطق به.

قال خالد: فقمت عنهما وتركتها يتراوضان[2] في أمرهما فما شعرت إلا برسل أم سلمه ومعهم المال وتخوت الثياب[3] فقالوا لي: تقول لك أم سلمة: إذا حدثت أمير المؤمنين فحدثه بمثل حديثك هذا!!

---

[1] الأثافي: ج أثفية: الحجر توضع فوقه القدر.

[2] يتراوضان: يتفاهمان ويتناظران.

[3] تخوت الثياب: خزائنها.

الفهرس